

مشيخة الأزهر الشريف

من عيون التراث الأزهري الحديث

سلسلة كتب اللغة والأدب

رقم: (1)

في نقد العقل البلاغي



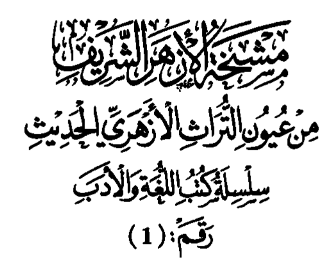
بقلم

محمود توفيق محمد سعد

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف




في نقد العقل البلاغي





في نقد العقل البلاغي

بقلم

محمود توفيق محمد سعد

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف





الإمارات العربية المتحدة
ص.ب ٧٦٩٥٦٤ أبوظبي
هاتف: 777 73 30 2 971+
فاكس: 054 12 44 2 971+
البريد الإلكتروني: info@muslim-elders.com
الموقع الإلكتروني: www@muslim-elders.com

فِهرست الهيئَة المصريَّة العامَّة
لدار الكُتُب والوثائق القوميَّة:
سعد، محمد توفيق محمد
في نقد العقل البلاغي
ط - 1 القاهرة: دار القدس العربي،
1440هـ/ 2019م.
ص ؛ 15 × 22 سم.
عدد الصفحات: 192
1 - البلاغة العربية 2 - الإدب العربي
3 - اللغة والأدب 4 - العنوان

رقم الإيـــداع: 2019 / 2094
الترقيم الدولي: 978-977-6601-46-8

الطبعة الأولى لمجلس حكماء المسلمين
1440هـ/ 2019م.

صورة الغلاف الخارجي: منظرٌ للجامع الأزهر الشريف
بريشة المستشرق الفرنسي بريس دافين
Prisse d'Avennes, (1807 - 1879).

مُتعَهِّد الطبع:
دار القدس العربي ، القاهرة
البريد الإلكتروني: dar.quds@gmail.com

تصميم الغلاف: Media Pictures Adv.
وائل حسن - هاتف: 1113354001 20+
البريد الإلكتروني: wael.hasan86@gmail.com

الصَّفُّ الطِّباعِيُ: ناصر محمد يحيى
والمراجَعةُ والتدقيق: محمد جمال



(يُباعُ هذا الكِتابُ بسِعر التَّكلُفة وعائدُه مُخصَّصٌ لطباعةِ كُتُبِ التراث الإسلامي)
(الآراءُ الواردةُ في الكِتاب لا تُعبِّر بالضرورة عن رأي مجلس حُكماء المسلمين)

الفهرس الإجمالي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ..

اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَعَلى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيت على إبرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِك على مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكتَ على إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

أمَّا بعدُ: فإنَّ اللَّهَ سُبحانَه وَبِحمدِه قد هَدَى في مَوضعَينِ من كِتابِهِ العَلِيِّ الحَكيمِ أنَّه قد تفضَّلَ على كلِّ عَبدٍ مِن عِبادِهِ نِعَمًا لا تُحصَى عَدًّا فَضلًا عن أن تستوفى شكرًا.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [سُورة إبراهيم: ٣٤].

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾ [سُورة النّحل: ١٨، ١٩].

وهَدى جَلَّ جَلالُه في رَأسِ المَعنى القُرآنيِّ وذِروتِه في

سورةِ «الضُّحى» إلى وجوبِ التَّحدُّثِ بنعمتِه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١] وهو تَحدُّثٌ بها تَحدُّثًا عمليًّا استثماريًّا يُرى أَثرُه في حَركةِ الحياةِ وليسَ تَحدُّثًا عنها لسانيًّا تَفاخريًّا، فَقَد هَدَى سيِّدُنا رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ علَيه وعلى آلِهِ وصَحبِه وسلَّم إلى أنَّ اللَّهَ سُبحانه وتَعالى يُحبُّ أن يرَى أَثرَ نِعمتِه على عَبدِه، رَوى التِّرمذيُّ[1] بسندِه عَن عَمرِو بنِ شُعَيبٍ عَن أَبيهِ عَن جَدِّهِ رَضِيَ اللَّه عَنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ علَيه وعلى آلِهِ وصَحبِه وسلَّم: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَتِهِ على عَبْدِهِ».

وهذا لا يكونُ إلَّا بحُسنِ شُكرِهِ سُبحانه وتَعالى علَى تلكَ النِّعَم، ممَّا يجعلُ كلَّ عَبدٍ مَهما تَصاعَدَ في مِعراجِ خالِصِ شُكرِ اللَّهِ سُبحانَه وبِحمدِه مُقصِّرًا تَقصِيرًا يُقيمُه في قَبضةِ المؤاخذةِ الصَّارِمةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٢٥﴾ [الشُّورَى: ٢٥].

وهذِه نِعمةٌ أُخرَى لا طاقةَ لنا بالوَفاءِ بُشكرِها، إذا ما كانَ

(١) [في «جامعه» (٢٨١٩)].

كَذلِك فإنَّ ثَمَّ نِعمًا تُستَولَدُ مِن نِعمٍ، ونِعمًا مُرتَّبةً على أُخرَى.

ولَعلَّ مِن أَجَلِّ النِّعمِ في مَا يتبيَّنُ لِي هي نِعمةُ «العقلِ» فبهذِه النِّعمةِ يتمكَّنُ صَاحبُها مِن استِثمارِ النِّعمِ الأُخرى، وفي رأسِها نِعمةُ الإِيمانِ بِما أَمرَ اللَّه جَلَّ جَلالُهُ الإيمانَ بِه فِي كِتَابِه وسُنَّةِ رسُولِه صَلَّى اللَّهُ علَيه وعلى آلِهِ وصَحبِه وسلَّم، فلا يكونُ «الإيمان» إلَّا مِن فِعلِ العَقلِ، فهو ثَمرةُ استثمارِه تبصُّرًا وتفكيرًا وتدبُّرًا.

هذه النِّعمةُ «نِعمةُ العَقلِ» هي الأَجدرُ بالاجتهادِ في شُكرِ مُنعِمِها سُبحانَه وبِحمدِه شُكرًا عَمليًّا.

وفُسطاطُ شُكرِ النِّعمةِ أُمورٌ عِدَّةٌ، منها:

- العِلمُ بأنَّ مُنعمَ هذِه النِّعمةِ والمتفضلَ بها هو اللَّهُ سُبحانَه وبِحمدِه وَحدَه، وأنَّه المُقتدِرُ على أن يَسلُبَها مِنك، ويمنحَها غيرَك، بل يمنحُها خَصمَكَ أو عَدوَّكَ، وما تُطيقُ دَفعَ ذلِك عنكَ.

- العِلمُ بها وبِحقيقَتها، وبِما خُلقت لَه، والعِلمُ بِكَيفيَّةِ استثمارِها على الوَجهِ الذي خُلِقت لَهُ.

- العِلمُ بالعَواملِ المُحقِّقةِ لِرِعايتِها وحِمايتِها، والسَّعيُ إلى استقواءِ هذِه العَوامِلِ.

- العِلمُ بالعَوائِقِ القائِمةِ في مَسيرِ تجدُّدِها وفاعليَّتِها، والسَّعيُ إلى إِزالةِ هذِهِ العَوائِقِ.

- رَصدُ حَركةِ هذه النِّعمةِ وفِعلِها في نَقدِ هذه الحَركَةِ نَقدًا كاشِفًا ونَقدًا مُقوِّمًا سواءٌ كانَ هذا التَّقويمُ تقويمَ عِوَجٍ أو تَقويمَ تقديرِ قِيمةٍ. (حُكمٌ قِيميٌّ)، فهذا الرَّصدُ والنَّقدُ مِن شُكرِ النِّعمةِ، ومِن حَقِّها على مَن أَنعَمَ اللَّهُ جَلَّ جَلالُهُ بِها عَليهِ.

هذه خَمسةُ عُمُدٍ تقومُ عليها فَريضةُ شُكرِ نِعمةِ اللَّهِ تعالى شُكرًا يُثمِرُ زيادَتَها الرَّبانيَّةَ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

وهذا ما تَسعى هذه الأَوراقُ إلى القِيامِ ببعضِ هذا الشُّكرِ العَمليِّ مُتمثِّلًا في «نَقدِ العَقلِ البَلاغيِّ العَربيِّ» نَقدًا بنَّاءً يُشرِفُ إلى تَجديدِ هذا «العقل» من داخِلِه وتَثويرِه واستثمارِ طاقَتِه في الوفَاءِ بحقِّ ما خُلِقَ له؛ تزلُّفًا إلى خالقِه والُمنعِمِ به علينا سُبحانَه وبِحمدِه.

واللَّهُ المستعانُ على طاعتِه، والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ.

وكتبه:

محمُود تَوفِيق مُحمَّد سَعد

الأستاذ في جامعة الأزهر الشَّريف

القاهرة -مدينة الشّروق

ربيع أول ١٤٤٠هـ

تَوطِئَةٌ

في الباعِثِ على القَولِ

مِن أَهَمِّ مَسؤُولِيَّاتِ القَائِمينَ إلى صِناعَةِ العَقلِ البَشريِّ عامَّةً والعَقلِ المُسلِمِ خَاصَّةً، وإلى حُسنِ استِثمارِهِ ورِعايَتِه وحِمايَتِه؛ أَن يَسبِروا حَرَكتَهُ، ويَقِيسُوا قُدرَتَهُ على استِعمارِ الحَياةِ التي هو قائِمٌ فِيها وَفقَ مُتَطَلَّباتِ الزَّمانِ والمكانِ والإِنسانِ، لِيحقِّقَ هذا العَقلُ المُسلمُ رِسالَتَهُ في هذه الحياةِ في اليَقينِ بِالحقِّ ونُصرَتِهِ، وصِناعَةِ الخيرِ ونَشرِهِ في النَّاسِ؛ كُلِّ النَّاسِ دُونَ تَفرِقَةٍ بَينَهُم بِسَبَبٍ مِن العِرقِ أو اللُّغَةِ أو الوَطَنِ أو الدِّينِ أو أيِّ مُستَوًى اجتِماعِيٍّ أَو اقتِصادِيٍّ أو تَوَجُّهٍ سِياسِيٍّ أَو فَلسَفِيٍّ.

ومِن سُبُلِ تَحقِيقِ شَيءٍ مِن هذِه المَسؤلِيَّةِ؛ البَصَرُ بِمُعوِّقاتِ هذا العَقلِ عَن إنفاذِ مُراداتِه، والبَصرُ بعواملِ تفعيلِهِ واستفحالِهِ، فالعَقلُ الإِنسانيُّ عامَّةً، وعقلُ المُسلمِ

خاصَّةً، تُحيطُ به عَوائِقُ وشَواغِلُ مُتكاثِرةٌ مُتنوِّعةٌ مُتجدِّدَةٌ؛ ذلك أنَّ الشَّيطانَ قد أخذَ على نفسِه عَهدًا أَمامَ خالقِهِ سُبحانَه وَتَعالَى أن يتربَّصَ بهذا العَقلِ الإنسانيِّ، وأن يَعبثَ بِه ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦- ١٨] ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٣٦- ٤٢].

وَأوَّلُ مَا يَرمِيهِ الشَّيطانُ مِن الإنسانِ هُو العَقلُ، إذ يقذِفُ عليه مِن الشُّبهاتِ ما لا يَجعلُه في سَكينةٍ، فإذا لم يكُن لهذا العَقلِ ما يحفَظُهُ مِن آثارِ تلكَ الشُّبُهاتِ لم تكُن عُقباهُ إلَّا الهَلَكةَ.

آفةُ الإِنسانِ الرَّئيسَةُ تَتمثَّلُ فِي شَيئَن رَئيسَين: نفسُه وعقلُه، أمَّا نفسُه فدَاؤها العُضالُ الشَّهواتُ، وأمَّا العَقلُ فداؤهُ المُبيرُ الشُّبهاتُ.

الشَّهواتُ كلَّما مَضَى الإنسانُ فِي عُمُرِهِ ضَعُفَت وَوَهَنَت، فلا يَزِيدُها الزَّمانُ إلا تَهافُتًا.

والشُّبُهاتُ السَّاكِنَةُ العُقولُ؛ كلَّما مَضَى الإنسانُ فِي عُمرِه مُخادِنُها استَفحَلَت وتفرَّعت واستَشرَت، وغارَت بَراثِنُها وأنيابُها فيه.

فمَن كانَ جُلُّ ضَلالِه مِن شُبهاتِ عَقلِه، فالأَملُ في رَغبَتِه في الرُّجوعِ جِدُّ مُتهافِتٌ.

وإِنَّ مِن أَبرَزِ والِداتِ الشُّبهاتِ العَصبيَّةَ العَمياءَ، والتَّقليدَ الأكمهَ؛ فعصبيَّةُ الإِنسانِ العمياءُ، ولا سيَّما عصبيَّتُه لِميراثِه مِن آبائِه وأَجدادِه هي التي تعوقُه عَن رؤيةِ ما في مِيراثِ أَجدادِه من نَقصٍ أو دَغلٍ أو تَهافُتٍ أو ضَعفٍ عن مُواءمةِ مُتطلَّباتِ الزَّمانِ والمكانِ واستِحقاقاتِ استعمارِه بتبيينِ الحَقِّ ونُصرتِه بالحقِّ أيًّا كان صَاحبُه،

وبِتَبيينِ الخيرِ واصطناعِهِ ونَشرِه في النَّاسِ، كلِّ النَّاسِ على تَعدُّدِ مُعتقداتِهم وأَوطانِهم، فليسَ مِن داءٍ كَمثلِ داءِ الوَهمِ بأنَّ ارتداءَ ثَوبِ الآباءِ هو مِن البِرِّ بِهم، وما كانَ الولدُ بمَخلوقٍ لزَمانِ أَبيه، فالزَّمانُ حُوَّلٌ، واستِحقاقاتُ استثمارِهِ حُوَّلٌ أيضًا، فَمِنَ الجَهلِ الأَحمقِ أَن يظُنَّ المَرءُ ما ليسَ بالحَسنِ هو الحَسنُ كلُّه، فإِذا هو في حُسبانِ أنَّه القائِمُ به وهو في الحقيقةِ الهادِمُ للحَسنِ العاقُّ لوالِدِه.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]

العصبيَّةُ العَمياءُ لميراثِ الآباءِ صَرَّفَ القرآنُ البيانَ عنها وصَوَّرَها في مَواضِعَ عِدَّةٍ من سِياقِهِ التَّرتيليِّ صُورًا تَجزَعُ مِنها كُلُّ نَفسٍ سَويَّةٍ؛ كيما تَبقَى هذه الصُّورُ المُفزِعةُ من المُصوَّرِ وأَثرِهِ حاضِرَةً لا يُتغافَلُ عنها فَضلًا عن أن يُغفَلَ عَنها.

العَصبيَّةُ لميراثِ الآباءِ، دونَ سَبرٍ لهذا المِيراثِ ومناقَدةٍ موضوعيَّةٍ نافِذَةٍ ذاتِ رؤيةٍ بعيدٍ مَداها، إنَّما تزُجُّ بصاحِبِها في العَصبيَّةِ لميراثِ مَن لا يَليقُ عَقلًا العَصبيَّةُ له،

وتَصرِفُه عمَّا هو الأَجدَرُ بالعَصبيَّةِ البَصيرةِ له، ألا ترَى أنَّ مشركي مَكَّةَ بَل وكلَّ كافِرٍ ومُشركٍ إنَّما يَلقَى دَعوةَ الأَنبياءِ والرُّسُلِ بهذه المَقولةِ ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

ولو أنَّهم كانوا صادِقينَ أو عاقِلينَ، لنَظروا في مِيراثِ كلِّ الآباءِ، نَظَرًا يَسبِرُه ويُقوِّمُه بعِيارِ الحَقِّ والخَيرِ، ولو فَعلَوا لوَجَدوا أنَّ مِن آبائِهم مَن هُو الأَولى بِبرِّهم والتَّمسُّكِ بمِيراثِه.

أَليسَ أبُو الأَنبياءِ وأَبو العَرَبِ سَيِّدُنا إبراهيمُ -عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو الأَولى بأَن يُقتدَى به وأن يُستمسَكَ بمِيراثِه؟!!

ما بالُهم رَضُوا بأن يكونوا العَقَقةَ له، وهو الأَولى بالبِرِّ!!

حثَّ القرآنُ الكريمُ على التَّمسُّكِ بميراثِ أَبيهِم سيِّدِنا إبراهيمَ عَلَيهِ السَّلامُ في مَواضِعَ عِدَّةٍ على اتِّباعِ مِلَّتِهِ عَلَيهِ الصَّلاة والسَّلام:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [سُورة البقرة: ١٣٠].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النّحل: ١٢٣].

حَثَّ على ذلكَ لِيحقِّقَ لهم السَّيرَ في الصِّراطِ المستقِيمِ، وَلِيُحقِّقَ لهم أَيضًا رَغبتَهم في البرِّ بآبائِهم، فمِن الجَورِ الذي لا يُطَاقُ البتَّةَ أَن يكونَ المرءُ بارًّا بمَن لا يَستحِقُّ البرَّ، وأن يُعرِضَ عَن برِّ مَن بِرُّه هو الفَريضَةُ اللَّازِمةُ اللّازِبَةُ، فَمِثلُ ذلِكَ لا يَدلُّ على جَورٍ، فحسبُ، بل هُو يَدُلُّ على فسادٍ في العَقلِ والرُّؤيةِ، وتِلك التي لا تُطاقُ .

العقلُ الفِطريُّ المُعافَى مِن عَبَثِ الشَّيطانِ وجُندِهِ نِعمةٌ تستوجِبُ الشُّكرَ؛ لأنَّه الأَداةُ الأَفعلُ لتَحقُّقِ السَّلامَةِ، وقد بيَّنَ القرآنُ ذلكَ وحَثَّ عليه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ

أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النَّحل: ٧٨].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السّجدة: ٩].

تبصَّر كَيفَ أنَّه حَثَّ على شُكرِ اللَّهِ سُبحانَه وتَعالى على إنعامِه بالسَّمعِ والبَصرِ والفُؤادِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وشُكرُ هذه النِّعمةِ لا يكونُ إلَّا بحُسنِ استعمالِها فيما خُلِقَتْ لَه مِن بَعدِ اليَقينِ القَطعيِّ بأنَّ المُنعمَ بها هو اللَّهُ سُبحانَه وبِحمدِه وَحدَه، وأَنَّه إنَّما أَنعمَ بِها تَفضُّلًا، وليس استحقاقًا لأَحدٍ عليه جَلَّ جَلالُهُ.

وقولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يُبيِّنُ لنا أَنَّه مَهما اجتهدنا في الشُّكرِ العَمليِّ لهذه النِّعمةِ، فهو قَليلٌ في جانِبِ ما تَستحقُّه هذه النِّعمةُ من الشُّكرَانِ إيماءً إلى عَظيمِ قَدرِ هذه النِّعمَةِ، فَيُقيمُكَ في مقامِ المُوقِنِ بأَنَّه مَهما اجتهدتَ لتَحقيقِ الوفَاءِ

بشُكرِ اللَّهِ سُبحانَه وبِحَمدِه على نِعَمِه فإنَّك المقصِّرُ في ذلكَ، والعاجِزُ عن تَحقيقِهِ، ممَّا يجعلُكَ في مَنعةٍ مِن أن تعجَبَ بعِبادِتكَ وشُكرِكَ، وتلكَ نِعمةٌ أُخرى يُتوجَّبُ الاجتهادُ في شُكرِها، فهي نِعمةٌ في نِعمةٍ، ويُقيمُك أَيضًا في مُقامِ اليقينِ أنَّه إذا ما أَكرَمَك اللَّهُ تعالى في الدُّنيا وفي الآخرةِ فما هذا بنَسَبِكَ أو حَسَبِكَ ما هذا بعِلمِكَ وعَمِلِكَ كما قَالَ قارونُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨] بل كلُّه بفضلِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ.

وهذا تحقيقٌ لدَرجةٍ من دَرجاتِ مَقامِ العُبودية التي هي الشَّرفُ الأَكمَلُ.

وفي هذا أَيضًا إعلامٌ بأنَّ مَن لَم يَجتهِد في شُكرِها العَمليِّ فهو مِن الخَاسِرينَ.

هذا نَزيرٌ من المعاني الإِحسانيَّةِ التي يُدركُها «العقلُ البلاغيُّ» من قولِه جَلَّ جَلالُهُ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ وهي كما تَرى مَعانٍ تُثقِّفُ النَّفسَ الإنسانيَّة، وتُهذِّبُها، وتهيِّئُها لأن تكونَ أَهلًا مِمَّن قالَ اللَّهُ تعالى فيهم:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

والقرآنُ يؤكِّدُ خُطورةَ التَّغافلِ عن التَّمسُّكِ بِنعمةِ السَّمعِ والبَصرِ والفُؤادِ، وجَعلِها أساسَ كلِّ موقفٍ يتخِذُه المرءُ في حياتِه.

ويبيِّنُ لنا أنَّ المَرءَ السَّويَّ هو الذي لا يَنطلقُ إلَّا مِن عِلمٍ وَثيقٍ استمدَّه ممَّا أعملَه الفؤادُ فيما أَدركَهُ السَّمعُ والبَصرُ، فقال سُبْحانَه وبِحمدِه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]

هذا النَّهيُ يُمثِّلُ كُليَّةً عُظمَى مُحكِمةً لكلِّ نَهيٍ، بل إنْ شِئتَ أن تقولَ إنَّه جماعُ كلِّ نَهيٍ جاءَ في كتابِ اللَّه سُبحانَه وَبِحمدِه فأنتَ على هُدًى ورَشادٍ.

وقد أَبانَ أَهلُ العِلمِ أنَّ مَقصِدَ حِفظِ العَقلِ واحِدٌ مِن المَقاصِدِ الكُليَّةِ العُظمى لمرادِ اللَّهِ تعالى الشَّرعيِّ أَمرًا ونَهيًا لعبادِه، فكما أنَّه نَهى عمَّا يُحدِثُ فيه ضررًا أوتَعطيلًا

أو تَفتيرًا، فإنَّه حثَّ على تَزكيتِه وتَذكيتِه وتَفعيلِه.

وكلُّ ذلكَ ممَّا يكونُ محلَّ عنايةِ المَرءِ في رِعايتِه ذاتَه، ورعايةِ مَن هو مُكلَّفٌ برِعايتِهم، وغيرُ قليلٍ أولئكَ الذين لايَعلمونَ فريضةَ رعايةِ عُقولِهم وعُقولِ مَن كُلِّفوا شَرعًا بالقَوامةِ عَليهِم رِعايةً وحِمايةً.

ويكفي العَقلَ شَرفًا أن نِيطَ بكمالِه التَّكليفُ أَمرًا ونهيًا، وهو ما يُفاضِلُ بينه وبينَ الأَنعامِ، وبِهِ يَتفاضَلُ العِبادُ فيما بينَهم.

* * *

الفصل الأول

في عِلمِ البلاغَةِ العَربيِّ

أثَرُ نَشأةِ «عِلمِ البَلاغةِ العَربيِّ» في مَنهجِهِ وأَدَواتِه ورِسالتِهِ[1]

---

(١) أُوثِرُ دائمًا الإعرابَ باسم «عِلم البلاغَةِ العربيِّ» وليسَ «علمُ بلاغةِ العَربيَّةِ» نَاعِتًا العِلمَ نفسَه بأنَّه عَربِيٌّ، لَفتًا إلى أنَّ القَصدَ إلى نِتاجِ العَقلِ العَربيِّ القُحِّ الذي لم يكُن للثَّقافاتِ الأَعجميَّةِ سُلطانٌ على تكوينِهِ وتَشكيلِهِ وحَركَتِه في مُمارسَتِه الفِعلَ التأويليَّ للبيانِ. فحِفاظُ هذا العَقلِ على عُروبَتِهِ النقَاءِ هُو الذي يَعصِمُه مِن أن يُجْرِيَ في حَرَكَتِه فَضلًا عن مَنهجِهِ من القَضايا والمَسائِلِ ومَذاهِبِ العُلماءِ وآرائِهم في كلِّ قَضِيَّةٍ ومَسألةٍ ما ليس يأنَسُ بطبيعةِ الإبانةِ بالعَربيَّةِ؛ إيصالًا للمَعنَى إلى القَلبِ في أَحسنِ صُورةٍ من اللَّفظِ، والإيصالُ هنا إِيصالُ تَمكينٍ وتَوطِينٍ وتَفعيلٍ.

وهذا لا يَعني البَتَّةَ أنَّ العَقلَ البَلاغيَّ العَربيَّ ليستْ له بمُنتَجِ العُقولِ الأُخَرِ عَلاقةٌ، بل هوعقلٌ طُلَعةٌ يتبصَّرُ ما يَجري حَولَه مِن مَعارِفَ وثَقافاتٍ وهومُستحضِرٌ عُروبَتَه الصَّفاءَ مِن كُلِّ عُجمةٍ، محافِظٌ عليها.

=

لكلِّ عِلمٍ مِن العُلومِ نَشأةٌ وأَسبابٌ اجتماعيَّةٌ حَمَلَتْ على نَشأَتِهِ، وتَطوّرِه حتَّى يُؤتِيَ أُكُلَه على النَّحوِ المُرادِ له أن يؤدِّيَه، والوعيُ بهذِه النَّشأةِ مُعينٌ على حُسنِ البَصرِ بمنهاجِ هذا العِلمِ، وأَدواتِه ومَقاصِدِه ومَغازِيهِ، وهذا ما يُحسِنُ أَن أُوجِزَ القَولَ فيه.

«عِلمُ البلاغةِ العَربيّ» إنَّما نَشأَ قِيامًا بفريضَةِ النَّصِيحةِ لكِتابِ اللَّهِ سُبحانَه وبِحمدِه، فهُو عِلمٌ نَشأَ مِن أَجلِ تَحقِيقِ فَريضةِ حُسنِ التَّلقِّي عن اللَّهِ سُبحانَه وبِحمدِه على تَصاعُدِ مُستوياتِ هذا التَّلقِّي؛ بَدءًا من التَّعقُّلِ وانتهاءً بالفَهمِ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلالُهُ، فهُو عِلمٌ قُرآنيٌّ اتَّخذَ عَربيَّةَ البيانِ القُرآنيِّ مجالَ

= وتبقَى عَلاقَتُه به عَلاقَةَ عِرفانٍ بأَحوالِ ما يَجري حَولَه، فإنْ احتاجَ إلى شيءٍ أَنتجَه، ولم يكُن أخرَقًا يُصنعُ له. أو يَقتاتُ فُتاتَ مَوائِدِ الآخرينَ ورَجيعَهم.

وهو إذ يَصنعُ ما يَحتاجُه إنَّما يَصنعُهُ ممَّا مَلكَت يدُه، فتِلكَ شِرعَةُ الشُّرفاءِ، وليسَ أَشرفَ مِن فُرسانِ عِلم نَشَأَ لتَحقيقِ فَريضَةِ حُسنِ الفَهمِ عنِ اللَّهِ سُبحانَه وبِحمدِه، فحُسنُ الفَهمِ عنه هو أَساسُ عَلاقَتِه القانِتَةِ الخَاشِعَةِ باللَّهِ سُبحانَه وبِحمدِه.

فِعلِه التَّأويليِّ، فَفَاقَ بذلِكَ سائِرَ عُلومِ العربيَّةِ، وجَعلَها في شَرفِ خِدمتِه لِما شَرُفَ بِهِ مِن خِدمَةِ بيانِ الوَحيِ.

ومَنْ يَقُم ناظِرًا مُتبصِّرًا ما جاءَ في تارِيخِ نَشأةِ «عِلمِ البلاغَةِ العَربيِّ» يُوقِنُ أنَّه نَشَأَ للّذي قُلتُ، وأنَّه ليسَ كَمِثلِ غَيرِه مِن عُلومِ العَربيَّةِ نَشَأَ للحِفاظِ على اللِّسانِ العَربيِّ صَحيحًا غيرَ مُبتَلى بلحنٍ أوْ عُجمَةٍ أو تَحريفٍ للقَولِ عَن مَواضِعهِ إِفهامًا وفَهمًا.

ولمَّا كانَ هذا العِلمُ مِن مُقتضَياتِ النَّصِيحةِ لكِتابِ اللَّهِ سُبحانَه وبِحمدِه، وتَحقيقِ حُسنِ تَلقِّيهِ كانَ لِزامًا أن يكونَ عَربيًّا في سَداهُ ولُحمتِهِ، وأَن تكونَ قَضاياهُ ومَسائِلُه جميعُها مِن حَوزةِ البَيانِ الذي نَشَأَ نَصِيحةً له، وأَن يكونَ مِنهاجَ حَرَكَةِ العَقلِ في هذا العِلمِ مُتناسِبَةً مَعَ شأنِ الإِبانةِ في القُرآنِ الكَريم، وأَن تكونَ أدواتُ تَفعيلِ هذا المَنهجِ مُتناسِبَةً مَعَه، وإِلَّا لَما تأتَّى لهذا المَنهجِ أن يفعلَ، وأن يبلغَ صَاحبُه ما هُو قائمٌ له مِن النَّصِيحةِ لكتابِ اللَّهِ سُبحانَه وبِحمدِه وتَحقِيقِ فريضةِ حُسنِ تلقِيهِ.

فَ«عِلمُ البَلاغةِ العَربيّ» هو في حَقيقتِهِ عِلمٌ مِن عُلومِ القُرآنِ مِن بَين سائرِ عُلومِ العَربيَّةِ، مَجالُ عَمَلِه: بَيانُ الوحي، وأَداةُ عملِه: اللِّسانُ العربيُّ المُبينُ.

استحضارُ هذه الحَقائقِ يَضبُطُ حَرَكةَ العَقلِ البَلاغِيِّ العَربيِّ في فِعلِه «التَّأويليِّ» لهذا البيانِ الوَحيِ الذي صَرَّفَ اللَّه سُبحانَه وبِحمدِه البَيانَ عن نُعوتِهِ وحِليَتِه، وكانَ مِمَّا لَفَتَنا إلى ذَلك أنَّه يُعرِبُ عن صِفاتِه سُبحانَه وتَعالَى وهُو يُخبرُنا بتنزيلِه هذا البيانَ، فَمِما قالَه تعالى:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس: ١-٥].

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [الزّمر: ١].

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ [الجاثية: ١، ٢] [الأحقاف: ٢].

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ١-٣].

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ١، ٢].

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾

[الواقعة: ٧٥- ٨٠].

هذه الصِّفاتُ التي ذَكرَها اللَّهُ سُبحانَه وتَعالى لنَفسِه، وهُو يُنبئُ عَن تَنزيلِ هذا الكِتابِ ممَّا يَستحضرُه العَقلُ البَلاغِيُّ وهُو يَفعلُ في هذا البَيانِ الوَحيِ تأويلًا وتَثويرًا وتَدبُّرًا واستطعامًا، فيكونُ له مِن ذلِكَ الاستحضارِ ما يَضبُطُ حَركَتَه، ويُقيمُها على الجادَّةِ إلى الغايةِ المَنشُودةِ.

وهذا ما لا يتحقَّقُ لأيِّ عَقلٍ آخَرَ يَفعلُ في أيِّ بيانٍ آخَرَ تَحليلًا وتَذوّقًا أو نَقدًا.

مِن هنا تَأتِي خُصُوصيَّةُ هذا العَقلِ البَلاغيِّ العَربيِّ مَجالَ فِعلٍ تأويليٍّ، ومَنهجًا وأَداةً ورِسالةً وغايةً، فتِلكَ

الخُصُوصيَّةُ ليسَت لأيِّ عِلمٍ آخَرَ من عُلومِ اللِّسانِ على تعدُّدِها وتنوُّعِها.

والغَفلةُ عن هذه السِّمَةِ الفارِقَةِ تُلقِي بالمُبتلَى بِها في خَطيئةِ مُقارَنةِ هذا العَقلِ البَلاغيِّ العَربيِّ بسائِرِ العُقولِ الأُخَرِ النَّاظرةِ في أيِّ بيانٍ بَشرِيٍّ شَرحًا أو تَحليلًا وتَذوقًا أو نَقدًا، وحِينَئِذٍ لا يكُونُ إلَّا ما لا يُسترضَى على نحوِ ما كانَ مِن غيرِ قليلٍ حينَ غَفَلوا عن هذه السِّمةِ الفارِقَةِ مَجالًا ومَنهجًا وأَداةً، وغايةً، فأرادُوه عَقلًا بلاغيًّا على سَمتِ ما تكونُ عُقُولُ البَلاغاتِ الأُخَرِ، وهذِه دَعوةٌ لهذا العقلِ البلاغيِّ العَربيِّ أن يَتخلَّى عَن مُقَوِّماتِه الشَّخصيَّةِ المَائِزَةِ المُتصاعِدَةِ بِه فِي مَعارجِ الشَّرفِ الذي لا يُطاوَلُ، بَل ولا طاقةَ لأحَدٍ أن يَستشرِفَ إليه أو يَتَشوَّفَ.

وليسَ أضرَّ على عِلمٍ له خصوصيَّةٌ يفارِقُ بها غَيرَه؛ أن يُرادَ له أن يتخلَّى عن تلكَ الخصوصيَّةِ ويذوبَ في غيرِه أويحمِلَ عنه ما لا يتواءَمُ مع خصُوصيَّتِه، فتلكَ خَطيئَةٌ لا يُطاقُ عُقباها.

وهذا ما يَستوجِبُ على كلِّ مَن أَنعمَ اللَّهُ سُبحانَه وبِحمدِه بنعمةِ العَقلِ البَلاغِيِّ العربيِّ أن يجتهِدَ في شُكرِهِ عَزَّ وعَلا شُكرًا رأسُه أمورٌ:

- العِرفانُ بخصُوصيَّةِ هذا العَقلِ مِن بينِ سَائرِ العُقولِ الأُخَرِ.

- الاجتهادُ في رِعايتِه وحِمايتِه وتَجديدِه مِن داخِلِه.

- استثمارُه على نحوٍ يَستطعِمُ بِه كلامَ اللَّه سُبْحانَه وبِحمدِه، فيكون غِذاءَه وشِفاءَه.

* * *

عَلاقةُ العَقلِ البَلاغيِّ العَربيِّ بالإِبداعِ الأَدبيِّ شِعرًا ونَثرًا

إذا ما كُنتُ الذَّاهِبَ إلى أنَّ عِلمَ البَلاغةِ العربيّ هُو العِلمُ القُرآنيُّ مِن بينِ سَائرِ عُلومِ لِسانِ العَربيةِ؛ فإنَّ هذا لا يَعنِي أنَّه المُنصَرِفُ عَن سَائرِ فُنونِ الإِبانةِ بالعَربيَّةِ فِي غيرِ بيانِ الوحي.

ذلك أنَّ القُرآنَ إنَّما نزَلَ علَى معهودِ العَرَبِ فِي الإِبانةِ إِفهامًا، كما هدَى إلى هذا قَولُ اللَّهِ سُبحانَه وَبِحمدِه في مواضِعَ عديدةٍ من كِتابِه: ﴿الٓرۚ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ [الدُّخان: ٥٨].

فَمن شَاءَ أن يُحسِنَ تلقِّي بيانِ الوحي، فلا مَندُوحَةَ لَه عَن أن يُحسِنَ قبلَ البيانِ؛ فَهمًا لِما أبدعَهُ أمراءُ لسانِ العربيَّة، ولا سِيَّما قَبلَ عَصرِ نُزولِ الوَحيِ وَفِي عَصرِهِ ومَا تبِعَه زَمانًا وَمكانًا ومِنهاجًا، وَلَو سَعَى إلى أن يُحسِنَ أيضًا البَيَانَ بِلسانِ العربيَّةِ إِفهامًا غيرَه علَى مَعهودِ العربِ لَكانَ

ذَلِكَ أَفعَلَ وَأَكملَ فِي تحقِيقِهِ بَعضًا مِن الوفاءِ بِحُسنِ تلقِّي بيانِ الوَحيِ[١].

فِقهُ الشِّعرِ في زَمَنِ ما قَبلَ الوَحيِ، وفي زَمنِهِ وما قاربَهُ عاملٌ رئيسٌ مِن عواملِ تَحقِيقِ النَّصِيحَةِ لِبيانِ الوحيِ تَلقِّيًا فاعِلًا فِي العَقلِ والسُّلوكِ، فيكونُ وجُودُهُ الجُوَّانِيُّ فِكرًا متآخِيًا فِي نُبلِهِ وسُمُوِّهِ مَعَ وُجُودِهِ الْمشْهودِ سُلوكًا[٢].

---

(١) ينظر في هذا: «الرّسالة» لأبي عبد اللَّه محمد بن إدريس الشافعيِّ (ت. ٢٠٤هـ): ٥٠ فقرة: ١٦٩، ص: ٥٢، فقرة: ١٧٣، وكتاب «آل حم: الشورى - الزّخرف- الدخان دراسة فِي أسرارِ البيان» لشيخنا: ٢٥٤-٢٥٥، ص: ٦٩٦- ٧٠٢.

(٢) كثيرًا ما أَحرِصُ -عَن عمدٍ- على استعمالِ كلمةِ «فقهِ الشِّعرِ» لَفتًا إلى طَبيعةِ عَلاقةِ «العقلِ البلاغيِّ العربيِّ» بالشِّعرِ، ففي كَلمةِ «فقه» من التَّقديسِ والتَّبجيلِ ما أُحبُّ أن يبقَى في النَّفسِ وأنا أُمارِسُ التَّبصُّرَ في هذا الشِّعرِ، فهو يأخُذُ من غاياتِ العَيْشِ فيه قيمتَه وإجلالَه، ممَّا يوجِبُ حُسنَ المُصابَرةِ في تَلقِّيهِ.

وليسَ في قَرنِ كَلمةِ «فقه» بـ«الشِّعرِ»ما يَخدِشُ جلالَها، لأنَّا لا نقرأُ الشِّعرَ طَلبًا لغَفلةٍ عن الرِّسالةِ العِباديَّةِ التي خُلِقنا لها. أو تَسلِّيًا عن هَمٍّ، بل نقرأُ الشِّعرَ على أنَّه عاملٌ فتيٌّ غنيٌّ بما يُثقِّفُ النَّفسَ ويروِّضها، ويحفِّزُها على ما به تتمكَّن مِن القيامِ بفريضةِ الاستخِلافِ.

لن يكونَ العقلُ البَلاغِيُّ عَربيًّا «قُرآنيًّا» وهُو يَتلقَّى بيانَ الوحيِ إلَّا إذا ما كانَ زادُهُ مِنْ فِقهِ شِعرِ العَربيَّةِ غَنِيًّا مُغنِيًا يُدرِكُ بِحضُورِهِ وفاعِليَّتِهِ ما بين البيانَينِ مِن مُفارقةٍ مُستمَدَّةٍ مِن المُفارقةِ بينَ المتكلِّمِ بِهذا القرآنِ والمُنزِّلِه وَحيًا على رسُولِه صلَّى اللَّه عَلَيهِ وعَلَى آلِهِ وصَحبِهِ وسَلَّمَ، وبيانِ الإبداعِ إنسانًا.

إذا لَم يَكن كذلكَ، فإنَّه سَيعجَزُ لا مَحالةَ عَن أن يَرَى اللَّهَ تعالى في تَلقِّيهِ القرآنَ بِكلِّ ما وصَفَ به تعالى نفسَهُ، لأنَّ مَن لَم يَكن بَصِيرًا برُؤيةِ الإنسانِ، بكلِّ ما لَه من سِماتٍ منها حِليةُ النَّقصِ والعَجزِ، في بَيانِهِ الإبداعِيِّ شِعرًا ونَثرًا فإنَّه بالضَّرُورةِ هو العاجِزُ عَن رؤيةِ اللَّهِ سُبحانَه وتَعالَى في بيانِهِ العَلِيِّ الحَكيمِ المُعجِزِ على ما وصَفَ بِهِ نَفسَهُ غَيرَ مُكيَّفٍ ولا مُمثَّلٍ ولا مُقوَّلٍ.

وبهذا يتبيَّن لكَ أنَّ اشتغالَ عِلمِ البَلاغةِ العَربيِّ بغيرِ بيانِ الوحي اشتغالٌ بما هو وسيلةٌ إلى تحقيقِ الوفاءِ بحقِّ بيانِ الوحي عليه، فهو يَنظرُ إلى كلِّ الإبداعِ الأدَبيِّ شِعرًا

ونَثرًا نَظرَه إلى وسيلةٍ إلى غَرضٍ وغايةٍ ومأمٍّ شريفٍ، تستمدُّ هذه الأَداةُ شرفَ النَّظرِ فيها والاعتناءِ بها، والنَّصِيحةِ لها من شَرَفِ الغايةِ الحامِلَةِ إليها.

وهذا يَجعلُ عِنايةَ العَقلِ البَلاغيِّ العربيِّ بالإِبداعِ الأدبيِّ، ولا سيَّما في عَصرِ ما قبلِ نُزولِ الوحي وفي أَثنائِه، عنايةً فائقةً يُنظرُ إليها على أَنَّها فِعلٌ عِباديٌّ، لأنَّ ما لا يتمُّ الواجبُ إلا بِه هو في نَفسِه واجبٌ لِغيرِه، فأيُّ عقلٍ يَنظرُ إلى فِقهِ الإبداعِ الأدبيِّ تلك النَّظرةَ العَليَّةَ إلَّا ذلك العقلُ البلاغيُّ العربيُّ؟

وهذا ما يَجعلُ نَظرَتَه في الإِبداعِ الأَدَبيِّ نظرةً مُتقِنةً مُصطَبِرَةً، لا تتعجَّلُ في سَيرِها وفي مُقامِها وتفرُّسِها، وتَثويرِها

وحين يُعرِضُ عقلٌ بلاغيٌّ عَن ذلكَ يكونُ أَبعدَ عن أن تكونَ حِليتُه أنَّه عَقلٌ بَلاغيٌّ عربيٌّ، فالَّذين يَرونَ في الاشتغالِ بقِراءةِ الشِّعرِ قِراءةً صابِرَةً مُتبتِّلةً في رِياضِهِ على أنَّهُ مِن الانشِغالِ عن العَملِ الصَّالحِ أولئكَ قد مُنِيت

عُقولُهم بشَيءٍ مِن الخَطَلِ، فعُمِّيَت عليها الحقِيقةُ.

وقد كانت للأئِمَّةِ فِي العِلمِ بالقُرآنِ عِنايةً بفِقهِ الشِّعرِ، وقد كانت مِن عبدِ القاهرِ التفاتةٌ وَضِيئَةٌ، في هذا الأَمرِ لا تَغيمُ عن طالبِ عِلمٍ ببلاغَةِ القُرآنِ(١)

فالعقلُ البَلاغيُّ -رَبيبُ حُسنِ تَلقِّي بيانِ الوَحيِ المُتضَلِّعُ بِحُسنِ فقهِ بيانِ الإبداعِ الأدبيِّ- هُو العَقلُ المُقتدِرُ على أَن يَجمَعَ إلى أن يَسمعَ اللَّهَ جَلَّ جَلالُهُ فِي بيانِهِ «الوَحيِ» رُؤيتَه سُبحانَه وتَعالَى في ذلِك البيانِ علَى ما وَصَفَ بِهِ تعالَى نفسَه، وتلك التي لَن تكونَ إلَّا لهذا العَقلِ البلاغِيِّ العربيِّ على ما وصَفتُ، وبهذا تَتَبيَّنُ لك عَلاقةُ عِلمِ البَلاغَةِ العَربيِّ بالإبداعِ الأَدبيِّ شِعرًا ونَثرًا بلِسانِ العَربيَّةِ الطَّهورِ مِن العُجمةِ مَعنًى وصُورةً.

* * *

(١) ينظر «دلائل الإعجاز»: ٨، فقرة (٧)، ص: ٢٦ فقرة: (٢١) السطر السادس وما بعده.

بين عِلمِ البَلاغةِ العَربيِّ والدِّراساتِ الأدبيَّةِ والنَّقديَّةِ

أبَنتُ قبلُ أنَّ الذي أذهبُ إليه على بَصِيرةٍ أنَّ عِلمَ البلاغةِ العربيّ عِلمٌ قُرآنيٌّ بالقَصدِ الرَّئيسِ، والذي أذهبُ إليهِ هُنا أنَّ الدِّراساتِ الأَدبيَّةَ والنَّقدِيَّةَ إنَّما مجالُ فِعلِها كلُّ فنونِ الإِبداعِ الأَدبيِّ فِي أطوارِه المختلِفَةِ[١].

وهذه الدِّراساتُ الأدَبيَّةُ والنَّقديَّةُ تتناوَلُ جَميعَ ما يَتعلَّقُ بـ«النّصّ الأدبِيِّ»:

تتناولُ مُكوَّناتِه على تنوُّعِها، وتكوينَه على تعدُّدِ مناهِجِه، وتاريخَه على امتدادِهِ وتشعُّبِهِ، وسِياقاتِ إبداعِهِ وتَلقِّيهِ، وعَلاقاتِهِ بالنُّصُوصِ الأُخَرِ فِي عَصرِه وما قَبلَهُ في

(١) نعتُ الإبداعِ بالأدبيِّ نعتُ ناظرٍ إلى البُعدِ الوظيفيِّ لهذا الإبداعِ، فغايَةُ الإبداعِ تأديبُ النَّفسِ الإنسانيَّةِ، وتثقيفُها على نحوٍ يجعلُها مُستعمَرةً للحياةِ كونًا وإنسانًا، أمَّا وَصفُ الإبداعِ بالفنِّيِّ فهو نعتٌ ناظِرٌ إلى بُعد منهجِ التَّكوينِ لما يُبْدعُ، فليس كلُّ إبداعٍ فنيٍّ إبداعًا أدبيًّا، والعقلُ البلاغيُّ معنيٌّ بالإبداعِ الجامِعِ بينَ البُعدينِ: الأدبيِّ والفنيِّ على درجةٍ سواء.

لُغَتِهِ واللُّغاتِ الأُخَرِ، وتحليلَه وتذوّقَه، و نقدَه على تنوُّعِ مناهجِ نقدِ «النَّصِّ» قديمًا وحَديثًا

وهذِه الدِّراساتُ الأدبيَّةُ والنَّقديَّةُ مِن عُمُدِها في فِعلِها ما يقُومُ بِه علمُ البلاغةِ العَربيّ في فِعلِه التَّأويليِّ لبيانِ الوَحي، فيكونُ لهذِه الدِّراساتِ عَونٌ منه بِما يَتَواءَمُ مَعَ طَبيعةِ الإِبداعِ العَربيِّ، فتحليلُ المَعانِي وصُوَرِها، ومناهجُ التَّرابطِ والتَّناسُبِ، وعلاقاتُ المَعانِي ونُظُمُ البِناءِ النَّصِّيِّ المتنوِّعةُ، واقتضاءُ المعانِي والأغراضِ أساليبَ تَصويرِها ومستوياتِ إيصالِها وفعلَها في النَّفسِ المُتلقِّيةِ، ومواقعُ الأساليبِ بعضِها من بعضٍ وغيرُ ذلك من القضَايا والمسائِلِ التي هيَ الهُمومُ الرَّئيسةُ للعَقلِ البَلاغيِّ في فِعلِه التَّأويليِّ في البيانِ القُرآنيِّ

كلُّ ذلك للدِّراساتِ الأَدبيَّةِ والنَّقديَّةِ أن تَستمدَّه مِن فِعلِ العَقلِ البَلاغِيِّ العَربيِّ التَّأويليِّ في بيانِ الوَحي، وبهذا تَترابَحُ الدِّراساتُ الأَدبيَّةُ والنَّقديَّةُ فتتراحبُ وتتغوَّرُ.

ولمَّا كانَ القُرآنُ نازِلًا في بيانِه الإفهاميِّ على وَفقِ مَعهودِ

العَربِ في الإِبانةِ عَن معانِيها؛ جليلِها ودَقيقِها، ذاتيِّها وكَونِيِّها، كانَ لعِلمِ البلاغةِ العَربيِّ مؤوِّلًا بيانَ القُرآنِ أن يَحمِلَ ما يتناسَبُ معَه مِن نِتاجِ الدِّراساتِ الأدبيَّةِ والنَّقديَّةِ للإِبداعِ الأَدبيِّ، فتكونُ العَلاقةُ بينَه وبينَها علاقةَ ترابُحٍ واستمدادٍ يترتَّبُ عليه تراحُبُ كلٍّ وترامِي أقطارِه وتغوُّرُه.

فعلمُ البلاغةِ العربيُّ أداةٌ من أَدواتِ الدِّراساتِ الأدَبيَّةِ والنَّقديَّةِ، وهي رافِدٌ مِن رَوافدِ بناءِ العَقلِ البلاغِيِّ العَربيِّ وتشَكُّلِه وتَفعيلِه.

وبِرَغمٍ مِن هذا يبقَى عِلمُ البلاغةِ العربيّ مُحتفِظًا بخصُوصيَّتِه في تأويلِ البيانِ القُرآنيِّ وتثويرِ مَكنونِه وتدبُّرِ مَعانيهِ على تباعُدِ مَنازِلِها وتَرامِي مَواطِنِها، ثمَّ استطعامِ هذه المعاني زادًا في مَسِيرِه إلى ربِّه سُبحانَه وتَعالى.

ليسَ مِن شأنِ الدَّرسِ الأَدبيِّ والنَّقديِّ أن يعمَلَ في بَيانِ الوَحي، فما هُو بإِبداعٍ أَدبيٍّ، وليسَ مِن شَأنِ العَقلِ البلاغيِّ العَربيِّ أَن يُنزِلَ ما هُو مِن خَصائصِ الإِبداعِ الأَدبيِّ على بيانِ الوحي، فإنَّ مَنهاجَ تَأويلِ بيانِ الوحي

مُستَمَدٌّ في المَقامِ الأَوَّلِ مِن رِسالةِ بيانِ الوحي وخصائصِ المتكلِّمِ به سُبحانَه وبِحمدِه وخصَائصِ الإِبانةِ فيه، وإِن كانَ بيانُ الوحي نازِلًا في مُكوِّناتِ بيانِه كَلِمًا وبِناءَ جُمَلٍ على مَعهُودِ العَربِ في بيانِها.

وفرقٌ بينَ أن يكونَ البيانُ القرآنيُّ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ كَلِمًا وبِناءَ جملٍ . . . ، وأن يَخضعَ في تأويلِهِ وتدبُّرِه واستنباطِ مَكنُونِهِ مِن معاني الهُدَى لمَا يَخضَعُ له البيانُ الإِبداعِيُّ مِن مناهجِ النَّقدِ على نَحوِ ما تُريدُ فِئةٌ أن لا تُفرِّقَ بينَ البيانَينِ زَعمًا أنَّ القُرآنَ إنَّما هُوَ نَصٌّ أدبيٌّ وما هوَ بِذلِك، بل هو كَما قالَ اللَّه تعالَى فيه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران:١٣٨]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ٤٢﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

فإِذا ما كانَ هذا شأنَ البَيانِ القُرآنيِّ فكيفَ يُجرَى عليه مناهجُ تلقِّي ما يأَتيه الباطلُ مِن بين يَدَيهِ ومِن خَلفِهِ؛ مَهما اجتهدَ صَانِعُه فِي وقايتِه مِن ذلِكَ؟

إنَّ مِمَّا يَجِبُ هنا عليَّ بِصِدقٍ بالغٍ توكيدُه أنَّ البيانَ القُرآنيَّ له خُصُوصيَّة يُفارِقُ بها أيَّ إِبداعٍ أَدَبيٍّ، وتوكيدُ خَطَلِ وخَطَرِ ما ذَهَبَ إليه بعضُ أَهلِ النَّظَرِ مِن أَنَّ العَربيَّ القُحَّ أو مَن رَبَطتهُ بالعربيَّةِ تلك الرَّوابطُ يقرأُ هذا الكِتابَ الجَليلَ ويدرسُه دَرسًا أَدَبيًّا كمَا تَدرُسُ الأُمَمُ المُختلِفةُ عُيونَ آدابِ اللُّغاتِ المختلِفةِ.

وتلك الدِّراسةُ الأَدبيَّةُ لأَثَرٍ عَظيمٍ كهذا القُرآنِ هِي ما يَجِبُ أن يقومَ به الدَّارسونَ أوَّلًا وَفاءً بحقِّ هذا الكِتابِ، ولَو لَم يقصِدوا الاهتداءَ بِه، أو الانتِفاعَ بِما حَوَى وشَمِلَ، بل هِي ما يَجِبُ أن يقُومَ بِه الدَّارسُون أوَّلًا، ولو لَم تنطوِ صدُورُهم على عقيدةِ ما فيه، أو انطَوَت على نَقيضِ ما يُردِّدُ المِسلمونَ الذينَ يَعُدُّونَه كِتابَهم المقدَّسَ، فالقرآنُ كتابُ الفنِّ العربيِّ الأَقدسُ سَواءٌ أنَظَرَ إليهِ النَّاظِرُ كذلك في الدِّينِ أم لا.

وهذا الدَّرسُ الأَدَبيُّ للقُرآنِ فِي ذلِك المُستوَى الفنيِّ دُونَ نَظرٍ إلى أيِّ اعتبارٍ دينيٍّ هُو ما نَعتدُّه- وتَعتدُّه معنا

الأُمَمُ العَربيَّةُ أَصلًا والعَربيَّةُ اختِلاطًا- مَقصِدًا أوَّلَ وغَرَضًا أَبعَدَ يَجِبُ أَن يَسبِقَ كُلَّ غَرَضٍ ويتقدَّمَ كُلَّ مَقصِدٍ[١].

هذا الذي جَهَدَ قائِلُه في أَن يَغرِسَه في صُدورِ حَفَدَتِهِ من «الأمناءِ» دَفعَه إلى أن يُجيزَ غيرَ مُتهيِّبٍ مَقالةَ تلميذِه «محمَّد أحمد خلف اللَّه» في رسالة «الدُّكتوراه» في شأنِ القَصَصِ القُرآنيِّ، وهي مَقالةٌ ضَالَّةٌ ضَلالًا مُبينًا مُبيرًا، وأَن يُجيزَ شَيخُ الأمناءِ «الخوليّ» أَيضًا مقالَةَ تِلميذتِه: «تَغريد عَنبر» في شأنِ أَصواتِ المَدِّ في القُرآنِ الكَريمِ، وهي أيضًا مَقالةٌ لا تَقِلُّ ضَلالًا عَن مَقالَةِ «خلف اللَّه»، وهي أَيضًا التي أَلقت بأَبي زيدٍ بعدُ في ما أَلقَت بِه، فقالَ في القُرآنِ ما قالَ. ذُرِيَّةٌ بعضُها مِن بَعضٍ.

بل إنَّ هذا الذي نَفَثَه شَيخُ «الأمناءِ» في صَدرِ أُولئكَ أَدَّى إلَى أَنَّهم تَجاوَزوا الدَّعوةَ إلى تَطبيقِ مَناهِجِ البَحثِ الأَدبيِّ

---

(١) «مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب» لأمين الخولي: ١٠ / ٢٢٩-٢٣٠.

وانظر «مفهوم النصِّ دراسة في علومِ القرآن»: ١٢-١٣، ١٤، ٢٧، ٢٩، ٣٠.

والنَّقديِّ واللُّغويِّ على القُرآنِ ونَقدِه إلى القَولِ بأَنَّ «القُرآنَ نَصٌّ عظيمٌ مَفتوحٌ على تَعدُّديَّةِ المعنَى والدَّلالاتِ، إنَّه نَصٌّ مَجازيٌّ مُنبَجِسٌ حُرٌّ، فأَينَما تُولُّوا فَثَمَّ وَجهُ اللَّهِ»[١]. (كذا).

وهذا كما ترَى دَعوَةٌ إلى أنَّ البَيانَ القُرآنيَّ حامِلٌ كَلَّ المَعاني التي يُمكِنُ أن تقومَ في عقلِ ناظِرٍ فيه وإن لم يكُن لها حُضورٌ في بَيانِه، بل وإن تَعانَدَت، فليسَ هُنالِكَ في تأويلِ القُرآنِ خَطأٌ وصَوابٌ، حَقٌّ وباطلٌ، كلٌّ يُقالُ ويُحمَلُ ويُنشَرُ في النَّاسِ ويُدعَى إليه، ويُنافَحُ عنه، أينما تولُّوا فَثَمَّ وجهُ اللَّهِ.

وهذا ما تعمَدُ بعضُ المناهجِ النَّقديَّةِ إلى القَولِ بِه في دِراسةِ الإِبداعِ الأَدبيِّ، فهُم أذهبُ إلى الإِسقاطِ، وأَرغبُ عَن الاستنباطِ، أنتَ لا تَقرأُ ما في البيانِ أنتَ تقرأُ ما في عَقلِكَ، فالمَعنى ما قامَ في عَقلِكَ لا ما قامَ في ما تَقرأُ وتَسمَعُ، أنتَ القارِئُ مَصدرُ المعنَى ومنجمه، أنت صَانِعُه، فاصنَع ماشِئتَ وكيفَ شِئتَ، ماتَ النَّصُّ وماتَ

(١) «نحو نقد العقل الإسلامي»: مقدمة المترجم: ١٠-١١.

قائِلُه، وبَقِيتَ أنتَ أيُّها القَارِئُ الخالدَ الذي لا يُردُّ. كذلك ينطِقُ لسانُ حالِ أولئك!!! [١].

وبَلَغَ الأَمرُ إلى أن صرَّحَ «أركُون» بما يَحلُم بِه في قراءةِ القُرآنِ قائِلًا: «إنَّ القِراءةَ التي أَحلُمُ بِها هي قِراءةٌ حرَّةٌ إلى دَرجةِ التَّشرُّدِ والتَّسكُّعِ في كلِّ الاتِّجاهاتِ، إنَّها قراءةٌ تَجِدُ فِيها كلُّ ذاتٍ بشريةٍ نَفسَها، سَواءٌ أكانت مُسلِمةً أو غيرَ مُسلمةٍ، أَقصِدُ قِراءةً تترُكُ فِيها الذَّاتُ الحريَّةَ لنَفسِها، ولـ«دينامِيكيّتها» الخاصَّة فِي الرَّبطِ بين الأَفكارِ والتَّصوراتِ انطلاقًا من نصُوصٍ مُختارةٍ بِحُرِّيةٍ مِن «كتاب» [٢] طالَما

(١) ينظر كتاب «قضايا فِي نقد العقل الدينيّ: كيف نفهم الإسلام اليوم»: ٥٣، ٥٤.

(٢) يعلِّقُ تلميذُه «هاشم صَالح» على هذا قائِلًا: «المقصُودُ بـ«الكتاب» هنا القُرآنُ نفسُه؛ لأنَّه ينتقِلُ مِن موضُوعٍ إلى موضُوعٍ آخَرَ مُختلِفٍ تَمامًا دونَ أيِّ تَمهيدٍ أو تَسلسُلٍ مَنطِقِيٍّ [كذا] ولِذا عَابَ عليهِ بعضُ الباحثِينَ «فَوضاه» ناسِينَ أنَّه كِتابٌ دِينيٌّ، وليسَ كِتابًا في المنطِقِ أو الفَلسفةِ...». «الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخٍ آخر للفكر الإسلامي»: ٨٦، الهامش الثاني».

عَابَ عليهِ الباحِثونَ «فَوْضاهُ» [كذا] ولكنَّها الفَوضَى التي تُحبِّذُ الحُريَّةَ المتشرِّدةَ في كلِّ اتِّجاهٍ»[١].

ليسَ هذا فَحَسبُ بل إنَّ هذا الذي نَفَثَه شَيخُ «الأُمناءِ» في صَدرِ أولئِكَ أَدَّى إِلَى أَنَّهم تجاوَزوا طَورَ الدَّعوةِ إلى تَطبيقِ مَناهِجِ البَحثِ الأَدَبيِّ والنَّقديِّ واللُّغويِّ في التَّحليليِّ على القُرآنِ مَهما كانت مَخارِجُها ومَرامِيها إلى طَورِ الدَّعوةِ إلى تَحقيقِ نَصِّهِ، واستخراجِ نُسخةٍ مُحقَّقَةٍ غير التي بين يدَي المُسلِمين، وأنَّ عدمَ وجودِ نسخةٍ محقَّقَةٍ للقُرآنِ أَدَّى إلى العَجزِ عن رؤيةِ القُرآنِ على حَقيقتِه، وأنَّه مِن أَوجَبِ ما يَجِبُ أن يُجاهِدَ لاستخراجِ هذه النُّسخةِ المُحقَّقةِ، وطَرحِ ما عَداها.

يقولُ أركون؛ حاثًّا على احتدامِ السِّجالِ وامتدادِهِ لتَحقيقِ فَريضةِ: «تحقيق النَّصِّ القُرآنيِّ» مِن عِدَّةِ نُسَخٍ: «المَعركةُ مِن أَجلِ تَحقيقِ القُرآنِ لم تَفقِد اليومَ أَهمِّيَّتَها

(١) «الفكر الأصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخٍ آخر للفكر الإسلامي»: ٧٦.

العِلميَّةَ على الإِطلاقِ، وذلك لأنَّها هِي التي تتحكَّمُ بِمدَى قُدرتِنا على التَّوصُّلِ إلى قِراءةٍ تاريخيَّةٍ أَكثرَ مِصداقيَّةٍ لهذا النَّصِّ». اهـ.

ويُعلِّق تلميذُه هاشم صالح: «بِمعنَى أنَّهُ ما دُمنا لَم نتوصَّل بعدُ إِلى نُسخةٍ مُحقَّقةٍ تمامًا عنِ القُرآنِ، فإنَّ قِراءتَنا التَّارِيخيَّةَ له سوفَ تَظلُّ ناقِصَةً، وعلى الرَّغمِ مِن كُلِّ الجُهودِ التي بَذَلَها الاستشراقُ مُنذ «نُولدكه» وحتى اليوم، إلَّا أنَّ «تَحقيقَ القُرآنِ» لا يزالُ يُعانِي ثَغَراتٍ مُهمَّةً، ويَبدو أنَّ هذه الحالةَ لا مَرجوعَ عنها؛ لأنَّ كُلَّ النُّسَخِ التي كانت مُعاصِرَةً للقُرآنِ دُمِّرَت إلَّا نُسخةً واحِدةً هي النُّسخةُ «الأرثوذكسية»(١) التي فرَضَتها السُّلطةُ الرَّسميَّةُ، فلو بَقِيَت

---

(١) يقول هاشم صالح: «المعنى الحرفيُّ لكَلِمَةِ «أرثوذكسية»... هو الرَّأيُ المُستقيمُ أوالصَّحيحُ، ولكن المعنى الاصطِلاحِيُّ يتَّخِذُ تلوينًا سَلبيًّا، ويعني التَّصلُّبَ العَقَائِديَّ الشَّديدَ، أي: إنَّ المؤمنَ الأرثوذكسيَّ اليهوديَّ يَعتبِرُ أنَّ دينَه هو وَحدَه الصَّحيحُ، وما عَداه باطِلٌ تَنبغي مُحاربتُه ...».

هامش ص: ٥٠ من كتاب «قضايا نقد العقل الديني: كيف نفهم =

نُسخٌ أُخرى مُعاصِرَةٌ لهذه النُّسخةِ، كمُصحَفِ ابنِ مَسعودٍ وغيرِه لاستطَعنا التَّوصُّلَ إلى صُورةٍ أَكثرَ تاريخيَّةً أو أَكثرَ حَقيقةً للنَّصِ، وكيفيَّةً تركيبيَّةً»[1]

كأنِّي بـ«أركون» وتلميذِه لم يَسمَعا بقولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١-٤٢] أو كأنِّي بهما يَذهبانِ به إلى وَجهٍ آخَرَ ظاهِرُه تكذيبُ مَنطوقِهِ.

وكلُّ هذا يُبيِّنُ لكَ كيفَ أنَّ فِكرةَ «الخولي» المُناديةَ بالدَّرسِ الأَدبيِّ للقُرآنِ كَيفَ نَمَت واستفحَلَت حتَّى باتَت عِندَ «أركون» دعوةً إلى إِخضاعِ القُرآنِ لتحقيقِهِ كما نَفعلُ في النَّصوصِ الأَدبيَّةِ. نُقدِّمُ ونؤخِّرُ، ونَحذِفُ ونُضيفُ..

وهذا يَعني أنَّه لا يؤمِنُ بأنَّ الذي بينَ يدَي المسلمينَ هو القرآنُ النَّازِلُ على سيِّدِنا رَسولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

= الإسلام اليوم» لمحمد أركون، وهامش ص: ١٠٤ من كتاب «الفكر الأصولي واستحالة التأصيل» لمحمد أركون.

(١) «الفكر الأصولي واستحالة التأصيل»: ٤٥.

الظَّنُّ بالشَّيخِ الخولي أنَّه لو رَأى ما تَرتَّبَ على دَعوتِه اعتبارَ «القُرآنِ» نَصًّا أَدبيًّا، والتَّعامُلَ مَعه على أنَّه كتابُ العربيَّةِ الأَكبرُ، دونَ تَقيُّدٍ بأنَّه كِتابٌ مُقدَّسٌ في أَثناءِ الدَّرسِ، لَراجَعَ ولَرَجَعَ غَيرَ مُتمَهِّلٍ، فهو عِندَنا أَعقلُ من أَن يذهَبَ إلى ما ذَهَبَ إليه بعضٌ من حَفَدَتِه الذين أَدَّى بهم غُلُوُّهُم في هذا إِلى الجَهرِ بأنَّ «القرآنَ» لا يُعادِلُ عند المسلمينَ «الإنجيلَ» عندَ النَّصارى، بل يُعادِلُ المَسيحَ، فَكُلٌّ مِن «القرآنِ» و«المسيحِ» تجسيدٌ لكَلمةِ اللَّهِ(١)

* * *

كلُّ هذا وكثيرٌ غيرُه يَضيقُ المقامُ عن مُجرَّدِ الإِشارةِ إِليه يُبيِّنُ لكَ عن عَظيمِ ما يتهدَّدُ الدَّرسَ القُرآنيَّ وفي صَدرِه الدَّرسُ البَلاغيُّ العَربيُّ للقُرآنِ، من جرَّاءِ إنزالِهما على وَفقِ ما يُسْتحدَثُ منْ مذاهبَ في دراسةِ الإِبداعِ الأدبيِّ

---

(١) ينظر: «القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني»: ٢٣، ٢٤، وتعليق هاشم صالح عليه في الصفحة نفسها.

دونَ التزامٍ بما هو مِن خواصِّ الدَّرسِ القُرآنيِّ عامَّةً، والدَّرسِ البلاغيِّ العربيِّ للقرآنِ خاصَّةً

وتحقيقًا لفَريضَةِ إقامَةِ الأَشياءِ في مَقامِها الأَوفَقِ ومَنصِبِها الأَقوَمِ كانَ لِزامًا مِن النَّظَرِ النَّاقِدِ للعَقلِ البَلاغيِّ العَربيِّ في سَعيِهِ، لِنَرى ما له مِن مَناقِبَ، وما كانَ مِنه ممَّا هو الأَجدَرُ بأن يتطهَّرَ منه ويتزكَّى.



الفصل الثاني

مقارباتٌ في تحريرِ الاصطلاحِ

يقولُ القَلقشَندي (ت. ٨٢١هـ): «مَعرِفةُ المُصطلَحِ هي اللَّازِمُ المُحتَّمُ، والمُهمُّ المُقدَّمُ؛ لعُمومِ الحاجَةِ إِليه، واقتصارِ القاصِرِ عليه.

إنَّ الصَّنيعةَ لا تكونُ صنيعةً

حتى يُصابَ بها طَريقُ المَصنَعِ»[(١)].

ونحنُ بحاجةٍ إلى تَبيينِ ثَلاثِ مُصطَلَحاتٍ هي المُكوِّنُ لموضوعِ هذه الورَيقاتِ، وهي المَنسوجُ منها عُنوانُه:

- مفهوم مصطلح «النقد».
- مفهوم مصطلح «العقل» عامَّةً.
- مفهوم مصطلح «العقل البلاغي العربي».

---

(١) «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء»: ١/ ٣١.

خاصَّةً؛ ليكونَ القارئُ على بيِّنَةٍ ممَّا هو قائِمٌ إليه. ولَه أَن لا يأخذَ بما أنا آخِذٌ به مِن تلك المَفاهيمِ، إن رأى بدليلٍ صَحيحٍ عدَمَ استدراكِها حاقَّ الصَّوابِ العَقليِّ والعِلميِّ.



مفهوم النقد[1]

إذا ما كانَ مادَّةُ «النون والقاف والدال» في بَيانِ العَربيَّةِ تدلُّ على «إبرازِ شَيءٍ وبروزِه» ومِن لَوازِمِه تَبيينُ الأَشياءِ كَتبينِ الصَّحيحِ مِن الخَطأِ، والجَيِّدِ من الرَّديءِ، والجَميلِ مِن القَبيحِ. . . فهو كَشفٌ عن حَالِ الأَشياءِ وأَقدارِها، وهذا يَستَلزِمُ دَوامَ التَّفرُّسِ والمتابعةِ والتَّغوُّرِ.

ولذا تقولُ العَربُ: «ما زالَ فلانٌ ينقُدُ الشَّيءَ، إذا لم يَزَل يَنظُر إليه» وقَد باتَ مُصطلحُ «النقد» دالًّا على تَقديرِ الأَعمالِ والحُكمِ عليها بدليلٍ صَحيحٍ مِن ذاتِ المحكومِ عليه لا مِن خارِجِه، وذلكَ لازِمٌ - لا ريبَ - مُقدِّماتٍ منها تَحقيقُ المَنقودِ وتوثيقُه، وتَبيينُه وتَفسيرُه.

---

(١) يقول أحمد الشايب: «النَّقدُ دراسَةُ الأشياءِ وتفسيرُها وتحليلُها وموازنتُها بغيرِها المُشابِهَةِ لها، أو المُقابِلَةِ، ثمَّ الحُكمُ عليها ببيانِ قِيمتِها ودَرجَتِها، يَجري هذا في العُلومِ والفُنونِ وفي كلِّ شيءٍ مُتَّصلٍ بالحياةِ. . . . ». «أصول النقد الأدبي»: ١١٥.

ولِذا أَذهَبُ إلى أنَّ للنَّقدِ العِلميِّ للكَلِمةِ الإنسانِ أربعةَ أركانٍ:

١- الرُّكنُ التَّوثيقيُّ التَّحقيقيُّ.

٢- الرُّكنُ التَّفسيريُّ التَّحليليُّ.

٣- الرُّكنُ التقويميُّ «الحُكميُّ».

٤- الرُّكنُ التَّقويميُّ «الإصلاحيُّ».

الرُّكنُ الأَوَّلُ: النَّقدُ التَّوثيقيُّ التَّحقيقيُّ:

يُمثِّلُ هذا الرُّكنُ الأَساسَ الذي يُبنَى عليه سائِرُ العَملِ النَّقديِّ للبَيانِ، والتَّقصيرُ في تَحقيقِه وتَحريرِه قَد يُفضِي إلى ما لا يُحمَدُ أثره.

تَوثيقُ نِسبةِ النَّصِّ إلى صانِعِه وتَحقيقِه وتَحريرِه ممَّا كانَ له مَحلٌّ رفيعٌ عندَ العَرَبِ في نَقدِ الكَلِمةِ الإِنسانِ إِبداعًا: شِعرًا ونَثرًا أَدبيًّا، كانَ مِن بَواكيرِ ما وَصَلَنا مِنه تأليفًا كتابُ «طبقات فحول الشعراء» وهو مُستمَدٌّ مِن مَنهجِ عُلماءِ الحَديثِ في الاعتِناءِ بتَوثيقِ نِسبةِ البَيانِ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فاستحضرَ ابنُ

سلامٍ الجُمَحيُّ مَنهجَ المُحدِّثينَ في ذلكَ وبنَى عليه كتابَه «الطبقات» وأَثارَ قَضيَّةَ «النَّحلِ» و«الادِّعاءِ» فكانَ لَه في هذا فَضلُ السَّبقِ الزَّمانيِّ والمنهجيِّ.

وفي مُعامَلَةِ عَالمٍ مُحدِّثٍ «الكلمةَ الشَّاعِرَةَ» في أَهمِّيَّةِ التَّوثيقِ والتَّحقيقِ مَعامَلةً مُستمَدَّةً مِن مُعامَلَةِ البَيانِ «الوحي» بيانِ السُّنَّةِ النَّبويَّةِ- ما يَهديكَ إلى قِيمةِ الكَلِمةِ الشَّاعِرَةِ في حَياةِ هَذه الأُمَّةِ، فهيَ كَلِمةٌ تُصنَعُ لتحقيقِ آدَميَّةِ الإِنسانِ[1]

وفي إطلاقِ العُلماءِ على القَولِ الشِّعريِّ -مَنظومًا ومَنثورًا- مُصطلَحَ «الأدبِ» ما يَهدي إلى القِيمَةِ الوَظيفيَّةِ لهذا القَولِ، فمَن لا يُحقِّقُ هذه القِيمةَ الوَظيفيَّةَ ليسَ بأهلٍ أَن يكونَ مِن هذا العِلمِ «الأدبِ».

---

(١) يَستهِلُّ ابنُ سلامٍ الجُمحيُّ كِتابَه -فيما وصلنا منه- بقوله: «وفى الشِّعرِ مَصنوعٌ مُفتَعلٌ موضوعٌ كَثيرٌ لا خيرَ فيه ولا حُجَّةَ فى عَربيَّةٍ، ولا أَدَبٌ يُستفادُ، ولا مَعنًى يُستخرَجُ، ولا مَثَلٌ يُضرَبُ، ولا مَديحٌ رائعٌ ولا هِجاءٌ مُقذِعٌ ولا فَخرٌ مُعجِبٌ ولا نَسيبٌ مُستطرَفٌ. «طبقات فحول الشعراء»: ١ / ٥.

وقَد كانَ للأُستاذِ الكبيرِ محمود محمد شاكر من هذا الباب مِن النَّقدِ التَّوثيقيِّ في ما جاءَ به على قَصيدَةِ «إنَّ بالشِّعبِ الذي دونَ سَلْعٍ..) ما يجدُرُ أن يكونَ مِثالًا يُستهدَى به في هذا البابِ من أَبوابِ النَّقدِ.

الرُّكنُ الثَّاني: النَّقدُ التَّفسيريُّ التَّحليليُّ:

النَّقدُ تَفسيريٌّ «التحليلي/ الشارح» هو عَملٌ تَبيينيٌّ كاشِفٌ لمكنونِ المَنقودِ ناثِرٌ مكنوزَه، مُثوِّرًا مَكنونَه، وهذا هو الشَّأنُ الرَّئيسُ للعَقلِ «البَلاغِيِّ» فهو عَقلٌ تفسيريٌّ تحليليٌّ استنباطيٌّ سِياقيٌّ.

الرُّكنُ الثَّالثُ: النَّقدُ التَّقويميُّ «الحُكميُّ»

النَّقدُ التَّقويميُّ لشأَنِ المَنقودِ «الحُكميِّ» عَملٌ يُبنَى على النَّقدِ التَّفسيريِّ التَّحليليِّ، لا سَبيلَ إلى تَحقيقِهِ إلَّا بتحقيقِ هذا الرُّكنِ الثَّاني فذلِكَ النَّقدُ التَّقويميُّ «الحكميُّ» يقومُ ببيانِ مَناقِبِ المَنقودِ ومَثالِبِه وأَسبابِ كلٍّ.

وهذا هو الشَّأنُ الرَّئيسُ للعَقلِ «النَّقديِّ» في بيانِ الإِبداعِ البَشريِّ أَدبًا أَو عِلمًا، وليسَ مِن فَرائِضِ العِقلِ البَلاغِيِّ أن يُمارِسَ ذلك.

أمَّا في بيانِ الوحي فالمُحاجَزَةُ مِن قِبَلِ البَيانِ نَفسِه، فهو أَجَلُّ مِن أَن يَخضَعَ لِمثلِ هذا النَّقدِ التَّقويميِّ الحُكميِّ، لأَنَّ مَصدَرَه الوحي، فالقُرآنُ الكَريمُ كِتابٌ عَزيزٌ عليٌّ حكيمٌ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢] وكذلكَ البيانُ النَّبويُّ، فإِذا ما تَحقَّقت نسبتُه إلى سَيِّدنا رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فلَيسَ إلَّا تفسيرُه وتَثويرُه وحُسنُ تلَقِّيهِ فِقهًا وفَهمًا ثمَّ تأدُّبًا وتَخلُّقًا[١].

أمَّا في الكَلِمةِ الإِنسانِ شِعرًا ونَثرًا أَدبيًّا فَتلكَ فَريضَةُ العَقلِ النَّقديِّ، وقَلَّما تَجِد في هذا الجانِبِ من البيانِ عَقلًا بلاغيًّا صِرفًا لا يُعرِّجُ على النَّقدِ التَّقويميِّ «الحكمي/

(١) لعلَّه لا يَخفى عليكَ أنَّ هنالكَ مُستغرِبينَ مِن بَني جِلدَتِنا، ويتكلَّمونَ بِلِسانِنا أَحيانًا، ويَنتسبونَ إلى دينِنا الذي ارتَضاهُ لنا ربُّنا جلَّ جلالُه؛ يُلِحُّونَ في مُؤلَّفاتِهم ومُنتدياتِهم على وجوبِ إِجراءِ دِراسةٍ نقديَّةٍ للقُرآنِ على غِرارِ صَنيعِ اليَهودِ والنَّصارى لِمَا يُسمونَّه كِتابًا مُقدَّسًا. ينظر«الفكر الأَصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الإِسلامي»: ٤٥.

التقديري» فأَسفارُالبلاغيِّينَ قَديمًا وحَديثًا مُترَعَةٌ بالأَحكامِ والتَّقديراتِ النَّقديَّةِ استحسانًا واستقباحًا.

وهذا النَّقدُ التَّقويميُّ الحُكميُّ للكَلِمةِ الإنسانِ: شِعرًا ونَثرًا أَدبيًّا قد يَستغنِي عنه ذو اللَّقانَةِ بالنَّقدِ التَّفسيريِّ، ذلكَ أنَّ مَن أَحسنَ تَفسيرَ نَصٍّ عِلميٍّ أو أَدبيٍّ فَقَد حَكَمَ له أو عليه ضِمنًا؛ لأنَّ التَّفسيرَ مُبينٌ عمَّا فيه، وما هو عليه مِن صِفاتٍ، ومِن ثَمَّ كانَ الأَعيانُ مِن أَهلِ العِلم يحرصونَ على شَرحِ دَواوينِ الشُّعراءِ، ووضعِ مَفاتيحَ للتَّلقِّي بكَشفِ وَجهِ المعنى للكَلِمةِ في السِّياقِ، والإشارةِ إلى المَعنى القَريبِ مِن البَيتِ دونَ التَّعرُّضِ للحُكمِ بالحُسنِ أوالقُبحِ، بل قَد يَذرونَ الاستِفصالَ في بيانِ مَكنونِ القَولِ الشِّعريِّ، مُكتفِينَ بالإِشارةِ إليه لِيَسعى القَارئُ إلى تَطلُّبِهِ بَنفسِهِ، فيفوزَ بلَذَّةِ الطَّلَبِ، ويَتَشَوَّفَ إلى الاستطعامِ مِن عَمَلِ عَقلِهِ وذَوقِهِ، وذَلكَ نَهجُ عَليٍّ في تَربيةِ الرِّجالِ.

لا يَتأَتَّى لكَ النَّقدُ التَّقويميُّ «الحكمي» إلَّا مِن بَعدِ استفراغِ الجُهدِ في الوَفاءِ بحقِّ النَّقدِ التَّفسيريِّ التَّحليليِّ، فلا يُستغنى البتَّةَ بالنَّقدِ التَّقويميِّ عن النَّقدِ التَّفسيريِّ، بل

إنَّ مِن أَهلِ النَّظرِ مَن يَذهَبُ إلى أنَّ مَن فَسَّرَ النَّصَّ الإنسانيَّ فَقَد حَكَمَ؛ إذِ التَّفسيرُ كَشفٌ عَن الحَقيقةِ، وهو مُتضَمِّنٌ كَشفَ القِيمةِ.

مِن هُنا كانت قِيمةُ «النَّقدِ الشَّارحِ» النَّقدَ التَّفسيريَّ، فَتفسيرُ البَيانِ أَهَمُّ مِن الحُكمِ عليه بالجَودَةِ أو الرَّداءَةِ، ولاسِيَّما حِينَ يكونُ ذلكَ الحُكمُ انطباعيًّا غيرَ مُعلَّلٍ، وغَيرَ واضِعٍ اليدَ على مَوطِنِ الجَودَةِ أو الرَّداءةِ.

يقولُ عبدُ القاهر: «وجملةُ ما أَردتُ أَن أُبيِّنَه لكَ: أنَّه لا بُدَّ لكُلِّ كَلامٍ تَستحسِنُه، ولفظٍ تَستجيدُه، مِن أن يكونَ لاستحسانِكَ ذلكَ جِهةٌ معلومةٌ وعِلَّةٌ مَعقولَةٌ وأن يكونَ لنا إلى العِبارَةِ عن ذاكَ سَبيلٌ، وعلى صِحَّةِ ما ادَّعيناهُ مِن ذلكَ دليلٌ.

وهو بابٌ مِن العِلمِ إذا أَنتَ فَتحتَه اطَّلَعتُ منه على فَوائِدَ جَليلةٍ، ومَعانٍ شريفَةٍ..»[1]

كُلُّ ذلكَ فَريضةُ عَينٍ لازِمةٌ لازِبَةٌ على كُلِّ مَن أَنعَمَ اللَّهُ سبحانه وبحمده عليه بنِعَمِه، ومِن أَجَلِّها نِعمةُ «العَقلِ».

---

(١) «دلائل الإعجاز»: ٤١.

الرُّكنُ الرَّابعُ: النَّقدُ التَّقويميُّ «الإصلاحيُّ»

هذا الرُّكنُ إنَّما يقومُ به الأَعيانُ، وهو يَعمَدُ إلى اقتِراحِ بديلٍ عمَّا لا يُسترضَى منَ البيانِ الإِنسانيِّ في سِياقِهِ ومَغزاه، ليُبصِرَ القَارئُ ما بَينَ الذي كانَ وما يَرى النَّاقدُ أنَّه الأَوْلى أن يكونَ، وهذا نَقدٌ بنَّاءٌ يَستدركُ الأعلى ويُزجِيه، وله في أَسفارِ أَهلِ العَلمِ حُضورٌ فاعِلٌ ولاسِيَّما في أَسفارِ شرحِ المُتونِ وحَواشِيها وتقارِيرِها، ولو أَنَّكَ استجمَعتَ ما بُثَّ فيها وفي ما شاكَلَها مِن أَسفارِ نَقدِ الكَلِمةِ الإِنسانِ لاستطعَمَ فؤادُكَ منه وَفيرًا

وإذا ما كانتِ الأَركانُ الثَّلاثةُ الأُوَلُ فريضةَ عَينٍ، فإنَّ هذا الرُّكنَ الرَّابعَ كأنَّه فَريضةٌ، فمَنزِلُه مِن سابِقِيه كَمَنزِلِ سُنَّةِ الفَجرِ مِن فَريضَةِ الصُّبحِ[1].

*****

(١) روى مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها».

وروى أيضًا بسنده عن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ أنه قال فى شأن الركعتين عند طلوع الفجر: «لهما أحب إلى من الدنيا جميعا».

«مرادي هنا بمصطَلحِ النَّقد»

الذي أُريدُه هُنا بمُصطَلحِ «النِّقدِ» إنَّما هو النَّقدُ الذي يأَخُذُ بِيَدِ القَارئِ؛ النَّقدُ التَّفسيريُّ، دونَ رَغبَةٍ عَن بَعضٍ مِن النَّقدِ التَّقويميِّ بوَجهَيهِ «الحُكميِّ والإِصلاحيِّ» ليَأخُذَ بيدِ القَارئِ فُيقيمُه على أَبوابِ القَصرِ «النَّصِّ» فيقولُ له: «ها أنتَ وطِلبتُكَ».

يُرشِدُه ويُقيمُ له المَعالمَ، ولا يُملي عليه، ولا يَحمِلُه على شَيءٍ، بل يحمِلُه إلى ما يَستطعِمُه القارِئُ من عَملِ عَقلِه وذَوقِهِ، حينَ يقومُ النَّاقِدُ من النَّصِّ مَقامَ مِصباحٍ في زُجاجَةٍ كأَنَّها كَوكَبٌ دُرِّيٌّ، ومِن القَارئِ مَقامَ الرَّائِدِ الرَّشيدِ، لا مَقامَ المُتسلِّطِ المُملِي عليه النَّاعِقِ في أُذُنَيه: «اسمَع لي لا تَسمَعْ لغيري، فأَنا أَبو عُذْرتِها، أنا جُذَيلُها المُحكَّكُ، فإنَّه لا يكونُ ناقِدًا بل هو إلى النَّاقِمِ من النَّصِّ ومِن القارِئِ معًا، فهو وبال عليهما معا.

* * * * *

مفهوم العقل

على الرَّغمِ من أنَّ كَلِمةَ «عقل» مِن أَكثرِ الكَلِماتِ استعمالًا في كُلِّ المُستوَياتِ الاجتماعيَّةِ والثَّقافيَّةِ للنَّاسِ، فإنَّ هذه الكَلِمَةَ لم تَحظَ - فيما بَلَغَه تَقميشِي وتَفتِيشي- بتَعريفٍ عِلميٍّ مُحكَمٍ جامِعٍ مانِعٍ، بل ولا تَعريفٍ جامِعٍ غيرِ مانِعٍ، فَبِقَدرِ ما مُنِحَت هذه الكَلِمةُ من كَثرةِ الاستِعمالِ بقدرِ ما حُرِمَت مِن دِقَّةِ ضَبطِ المَفهومِ، فَلَم تَعصِمها كَثرةُ الاستعمالِ عن عَوَزِها إلى دِقَّةِ ضَبطِ المَقصودِ.

وعُظمُ ما أَدركتُه مِن تَعريفاتِهم هو إلى بَيانِ وَظيفةٍ مِن وَظائِفِ «العقل» من نحوِ قولِهم:

«ما يكونُ به التَّفكيرُ والاستدلالُ، وتركيبُ التَّصوراتِ والتَّصديقاتِ».

أو «ما يتميَّزُ به الحَسَنُ من القَبيحِ، والخَيرُ مِن الشَّرِّ، والحَقُّ من الباطِلِ».

أو «ما به تُدرَكُ الأَشياءُ على حَقيقتِها».

أو «ما يُقابِلُ الغَريزَةَ التي لا اختيارَ لها»...

كلُّ هذا لا يكشِفُ عن حقيقةِ «العقل»، وكأَنَّ «العَقلَ» الأَجرَدَ نفسَه يَعجَزُ عن أن يعقِلَ حَقيقتَه بنفسِه، وعن أن يَكشِفَ عن كُنهِهِ بنفسِهِ، ممَّا يجعلُه قائِمًا في مَقامِ «العَوَزُ» فمَا يَعجَزُ عن أن يَعرِفَ نفسَه ويُحيطَ بحقيقتِها بنفسِه أيصلحُ أن يكونَ له السُّلطانِ المُطلَقِ على غَيره، وأن يكونَ المرجِعَ الأَوحدَ لمَعرِفةِ كلِّ شيءٍ غَيرِ حِسِّيٍّ، فيدَّعي أنَّ ما لا يُدركُه «العقلُ» لا وجودَ له(١)

---

(١) الذَّاهبُ إلى أنَّ العَقلَ وَحدَه هو مَصدرُ المعرِفةِ بما ليسَ بمحسوسٍ قد يُفضي بصاحِبه إلى أَن يُنكِرَ الوحيَ والغَيبَ، وهذا ما يَجِبُ التَّحاجُرُ والتَّحاجُزُ عنه، والاعتِصامُ من قَواصِمِه. الإِعلاءُ من شَأنِ العَقلِ الرَّشيدِ ضرورةٌ لكنَّ تقديسَه وتَرئيسَه وتَسليطَه هو الهُلكُ والمَحقُ لآدميَّةِ الإِنسانِ.

وَظيفةُ العَقلِ معَ النَّصِّ «الوحي» هو التَّلقِّي فِقهًا وفهمًا وتقريبًا وتفعيلًا، وليسَ الإِقصاءُ والتَّنحيةُ، والتَّسلُّطُ والتَّقويلُ.

يقولُ اللَّهُ سبحانه وتعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ =

والعَجزُ عن الإِجماعِ أو شِبهِهِ على تَحريرِ كُنهِ «العقلِ» وحَقيقتِهِ، لا أَجِدُ نفسيَ إِزاءَه إِلَّا مُتسائِلًا: أكَلِمةُ «العقل» اسمُ عَلَمٍ على شَيءٍ بذاتِه له وجودٌ مُستقِلٌّ كَمَثلِ «العين» و«الأذن» و«الروح» أم أَنَّها اسمٌ على عَمَلٍ يؤدِّيه شيءٌ ما في الإِنسانِ، كما تؤدِّي «العينُ» النَّظرَ، وكما تؤدِّي «الأُذُنُ» السَّمعَ، وكما تؤدِّي «الروحُ» الحياةَ؟

أما أَنَّه اسمُ عَلَمٍ على شَيءٍ مُتعيِّنٍ في الإِنسانِ، فذلكَ مَحلُّ اختلافٍ واشتجارٍ بينَ أهلِ العِلمِ وحَقَّ علينا أَن نتساءَلَ ما مدلولُ كَلِمةِ «العَقل» في بيانِ الوحي قُرآنًا وسُنَّة، ثمَّ في بيانِ الإِنسانِ؟

* * * * *

العقلُ في بيانِ الذِّكرِ العَليِّ الحَكيمِ:

الذي تبيَّنَ لي أنَّ كَلِمةَ «عقل» لم تَرِد في كِتابِ اللَّهِ

= فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥].

سُبحانه وبِحمدِه عَلَمًا على أَداةٍ من أَدواتِ الإِدراكِ الآدميِّ، فيكونُ لها ما يُشارُ بها إليه كـ«العينِ» أو«الأُذُنِ» أو «الأَنفِ» ونحو ذلك؟

وإنَّما وَرَدَ فيه ما يُنبئُ عن أنَّه فِعلٌ من أَفعالِ القَلبِ، ممَّا يَهدي إلى أنَّه «مصدرٌ» لفِعلٍ مِن أفعالِ ما يَقَعُ من الإِدراكِ غيرِ الحِسِّيِّ. وليسَ اسمًا مُعادِلًا لاسمِ «القلبِ» فللقَلبِ في القُرآنِ أفعالٌ عِدَّةٌ: العَقلُ والفِقهُ والعِلمُ والتَّدبُّرُ. كما لا يَخفى.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

فالعَقلُ في البيانِ القُرآنيِّ مَصدرُ فِعلٍ من أَفعالِ القَلبِ، وهو أَوَّلُ درجاتِ إِدراكِ ما ليسَ بحسِّيٍّ، ويترتَّبُ على هذا الفِعلِ أَفعالٌ إدراكيَّةٌ أَعلى وأَرقَى. ولكلِّ دَرَجةٍ من درجاتِ أَفعالِ الإِدراكِ القَلبيِّ ثَمَرَةٌ تَتَناسَبُ مع طَبيعةِ هذا الفِعلِ الإِدراكيِّ. فكما تَفاوَتَ النَّاسُ في مَستوياتِ أَفعالِ الإِدراكِ القَلبيِّ تفاوَتوا في ثِمارِها:

مِنهم مَن لا يتجاوزُ فعلُ قَلبِه العَقلَ والضَّبطَ والحِفظَ، فهو وِعاءٌ لما عَقَلَ، ليس له مِنه إلَّا حَملُه وحِفظُه، وهي دَرجَةٌ لا تُستحقَرُ، كما لا يخلُدُ إليها الأَشرافُ الأَماجِدُ.

ومنهم مَن يَتَصاعَدُ في مِعراجِ «التَّلقِّي» إلى دَرجةِ الفَهمِ عنِ اللَّهِ سبحانه وتعالى وأولئكَ الذين يَبلُغونَ دَرَجةَ الوِراثةَ عن رَسولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

كُلُّ هذا يَهدي إِلى أنَّ «العقلَ» في البَيانِ القُرآنيِّ إنَّما هو «مصدرٌ» لِفِعلٍ مِن أَفعالِ ما يقَعُ مِن الإِدراكِ غيرِ الحِسِّيِّ.

فأَنا إِنسانٌ ذو ضَربينِ من الإِدراكِ؛ أُشارِكُ الحَيوانَ في الأَوَّلِ، وهو الإِدراكُ الحِسِّيُّ، ويُشارِكُني الحيوانُ في شَطرِ الإِدراكِ الآخرِ، وهو الإِدراكُ غيرُ الحِسِّيِّ هذا الإِدراكُ غيرُ الحِسِّيِّ ضَربانِ:

إِدراكٌ غَرزِيٌّ، وإِدراكٌ مَعرِفيٌّ

الإدراكُ الغَرزيُّ مُحقَّقٌ في الحَيوانِ، وبه يتصرَّفُ في حَياتِه تَصرُّفاتٍ قد تكونُ في صورةٍ بالِغَةِ الدِّقَّةِ والحِكمةِ والسِّياسةِ، كتَصرُّفاتِ «النَّمل» و«النَّحل» وغَيرِهما، وهذا مِن فَيضِ رُبوبيَّةِ اللَّهِ ربِّ العالمينَ له.

والإِدراكُ المَعرفيُّ هذا لا يكونُ إِلَّا للإِنسانِ، وهو الذي يترتَّبُ على نُضجِه التَّكليفُ الإِلهيُّ للإِنسانِ المُتمثِّلُ في تكليفينِ كُلِّيينِ:

الأول: تَصديقُ خبرِ اللَّهِ سبحانَه وتعالى في كِتابِه وفي صَحيحِ سنَّةِ رَسولِه ﷺ، فَيهتِفُ القَلبُ واللِّسانُ معًا: ومَن أَصدقُ مِن اللَّهِ قِيلًا، وصدَقَ رسولُه صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم فيما بلَّغَه عن ربِّه جَلَّ جلالُه.

والآخَرُ: طاعةُ مُرادِه الشَّرعيِّ أَمرًا ونهيًّا، كما جاءَ في كِتابِه تعالى وسنَّةِ رسولِه صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم دونَ توقُّفٍ أو ابتداعٍ.

هذا الإِدراكُ المعرفيُّ الذي اختصَّ به الإِنسانُ من بينِ الكائِناتِ، هو مَناطُ التَّكريمِ مِثلَما هو مَناطُ التَّكليفِ.

ولِتحقيقِ ذلكَ وتَيسيرِه على العِبادِ أَنزلَ اللَّهُ سبحانه وتعالى كِتابَه بِلسانٍ عَرَبيٍّ، وأَبانَ أنَّ حِكمةَ إِنزالِه بِلِسانٍ عَربيٍّ ليكونوا على رجاءٍ من أَنفُسِهم أَن يعقِلوا ما فيه:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ٢].

فقوله: «لعلكم تعقلون» أي: لتكونوا على حالٍ ترجونَ وتتوقَّعونَ أن تعقِلوا ما فيه مِن دقائِقِ المعاني ولَطائِفِها.

ولَولا أنَّه يَسَّرَه للذِّكرِ بِلِسانِ رسولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم ما كانَ لأَحدٍ أن يَعقِلَ ما فيه:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨] ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

فنزولُ القُرآنِ عَربيُّ البَيانِ إنَّما هو مُيسَّرٌ تحقيقُ تَعقُّلِه، فَمَن لم يَعقِله مِن العَرَبِ، فهذا آيةٌ على شَنَاعةِ شَأنِه، فكَأنَّه صارَ بالنِّسبةِ إليه كَمَن يُكلَّمُ بلسانٍ غيرِ لسانِه لا يَعقِلُ عنه، لا لأنَّ الكَلامَ لا يُعقَلُ، بل لأنَّ السَّامِعَ فَقَدَ القُدرةَ على أن يَعقِلَ ما يُخاطَبُ بلِسانِه، فكيفَ إذا ما خُوطِبَ بغيرِه؟ وتلك التي يَتَحاجَزُ عنها كُلُّ إنسانٍ؛ لأنَّها من أَنكَى ضُروبِ المَعرَّةِ وأَشنعِها.

* * * * *

مفهوم العقل في بيان النبوة:

وجاءَت كَلِمةُ «العقلِ» في بيانِ رَسولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم على وجوهٍ عِدَّةٍ؛ منها: بمعنى «التَّعقُّل» من نحو ما رواه البخاري في «صحيحه»[1] من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي اللَّه عنه: قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى المُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى

(١) برقم: (٣٠٤).

النِّسَاءِ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ».

فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ».

قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: «أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ» قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ».

قُلْنَ: بَلَى.

قَالَ: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا».

ففي سِياقِ الحَديثِ ما يدلُّ على أنَّ مرادَه بقولِه: «ناقصاتِ عَقلٍ» هو إِمساكُ المعرِفةِ وضبطُها وحفظُها، بدلالةِ قولِه صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «أليسَ

شهادةُ المرأةِ مثلَ نِصفِ شهادةِ الرَّجلِ ». قُلنَ: بلى. قالَ: «فذلكَ من نُقصانِ عَقلِها».

وجاء في بيانِه صلى اللّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم كَلِمةُ «عقلٍ» بمعنى «الدِّية» لأنَّها تَعقِلُ؛ أي: تمنعُ -كالقَصاصِ- من تكرارِ الفِعلِ منه أو مِن غيرِه، وكذلكَ تعقِلُ صاحِبَ الدِّيةِ وما دونَه من أن يعتَديَ بنفسِه، فيأخُذَ حقَّه بيدِه، فيتَجاوز:

روى البخاري في «صحيحه»(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: قضى رسولُ اللّهِ ﷺ فى جَنينِ امرأةٍ من بنى لَحيانَ سَقَطَ مَيِّتًا بغُرَّةٍ عبدٍ أو أمَةٍ. ثُمَّ إنَّ المرأةَ التى قَضَى عليها بالغُرَّةِ تُوفِّيَت، فَقَضى رسولُ اللّهِ ﷺ «بأنَّ ميراثَها لبَنيها وزَوجِها، وأنَّ العَقلَ على عَصَبَتِها». أي: وأنَّ «الدِّيَةَ» على عَصَبَتِها.

ومنها: ما ظاهِرُه أنَّه بمعنى أَدَاةِ الإِدراكِ، روى مسلم في «صحيحه» عن عبد اللّه بن بُريدة عن أبيه، أنَّ ماعِزَ بنَ مالِكٍ

---

(١) برقم: (٦٧٤٠).

الأَسلَميَّ رضي الله عنه أَتى رَسولَ اللَّهِ ﷺ فقال: «يا رسولَ اللَّهِ، إنى قَد ظَلَمتُ نَفسيَ وزَنَيتُ، وإنِّى أُريدُ أن تُطهِّرَنى». فرَدَّه، فلمَّا كانَ مِن الغَدِ أَتاهُ، فقال: «يا رسولَ اللَّهِ، إنِّى قَد زَنيتُ». فردَّه الثَّانيةَ، فأَرسَلَ رَسولُ اللَّه ﷺ إلى قَومِه، فَقَالَ: «أَتعلمونَ بعقلِه بأسًا تُنكِرونَ منه شِيئًا؟». فقالوا: «ما نعلمه إلا وفى العَقلِ مِن صَالحِينا فيما نرَى ...» الحديث.

فظَاهِرُ قَولِه صلى اللَّه عليه وعلى آله وصَحبِه وسَلَّم: «أَتعلَمونَ بعَقلِه بأَسًا تُنكرونَ منه شيئًا». فقالوا: «ما نعلمُه إلَّا وفى العَقلِ مِن صالِحينا فِيما نَرى» أنَّ «العقلَ» أَداةُ الإِدراكِ.

وهذا الظَّاهِرُ يَحتمِلُ التَّأويلَ: يُحتَمَلُ أن يؤوَّلَ بمعنى «التَّعقُّل» أي: أتعلمونَ بأسًا بتعقُّلِه ما يقولُ؟.

والذي يَحملُني إلى القَولِ باحتمالِ إرادةِ «التَّعقُّلِ» في هذا المَوضِعِ ما ذَهَبَ إليه ابنُ القَيِّمِ (ت. ٧٥١هـ)[١] من أنَّ «أحاديثَ «العقلِ» كُلَّها كَذِبٌ».

---

(١) في: «المنار المنيف في الصحيح والضعيف»: ٦٦-٧٦.

لَعلَّ ابنَ القَيِّمِ يُؤَوِّلُ ما وَرَدَ في «صحيح مسلم» من قَولِ رَسولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم: «أَتعلَمونَ بعَقلِه بأسًا تُنكِرونَ منه شَيئًا». أي: أتَعلمونَ بتعقُّلِه وضَبطِه لمَا يكونُ بأسًا؟ فابنُ القَيِّمِ أَجَلُّ مِن أَن يَغيبَ عنه هذا الحديثُ من «صحيح مسلم»، فَيقضي هذا القَضاءَ السَّابغَ: «أحاديث «العقل» كلها كذب».

***

مفهوم العقل في بيان الناس:

أمَّا كَلِمةُ «العَقلِ» في بَيانِ النَّاسِ فَقَد جاءَت مُرادًا بها أَداةُ إِدراكِ ما ليسَ بمَحسوسٍ، وجَرَت على أَلسِنَتِهم على اختِلافِ مُستوياتِهم الاجتماعيَّةِ والثَّقافيَّةِ.

تكاثَرَت أَقوالُ أهلِ العِلمِ قَديمًا وحَديثًا في بيانِ معنى «العَقلِ» ولكنِّي أَصطفي هنا مَقَالةَ أَبي عبدِ اللَّهِ الحارِثِ بنِ أَسدٍ المُحاسبي (ت. ٢٤٣هـ) لمَا تَتَّسِم به مِن عُمقٍ وثَراءٍ.

يقولُ أبو عَبدِ اللَّهِ المُحاسبي: «سألتَ عن العَقلِ؛ ما هو؟ وإنِّي أَرجعُ إليكَ في اللُّغةِ والمَعقولِ من الكِتابِ

والسُّنَّةِ. وتَراجَعَ العُلماءُ فيما بينهم بالتَّسميةِ ثلاثةَ معانٍ:

أحدها: هو معناه لا معنى له غيره في الحقيقةِ.

والآخران: اسمان جوَّزتهُما العَربُ؛ إذ كانا عنه فِعلًا لا يكونان إلا به ومنه.

وقَد سمَّاها اللَّهُ تعالى في كِتابِه وسمَّتها العُلماءُ عَقلًا.

[تَبيينُ المحاسبي المعنى الأوَّلَ للعَقلِ]

فأمَّا ما هو في المعنى في الحقيقةِ لا غيرُه، فهو غَريزةٌ وَضَعها، فهو غَريزةٌ لا يُعرَفُ إلَّا بفَعالِه في القَلبِ والجَوارِحِ لا يَقدِرُ أَحدٌ أن يصِفَه في نفسِه ولا في غيرِه بغيرِ أَفعالِه.

ولا يَقدِرُ أَن يَصِفَه بِجسميَّةٍ ولا بِطُولٍ ولا بِعَرْضٍ ولا طَعمٍ ولا شَمٍّ ولا مجَسَّةٍ ولا لونٍ ولا يُعرَفُ إلا بأفعالِه. . . .

وقالَ قَومٌ: هو نُورٌ وَضَعَه اللَّهُ تعالى طَبعًا وغَريزةً يُبصِرُ به ويُعبِّر به، نورٌ في القَلبِ، كالنُّورِ في العَينِ، وهو البَصرُ، فالعَقلُ نورٌ في القَلبِ، والبَصَرُ نورٌ في العَينِ، فالعَقلُ غريزةٌ يولَدُ العبدُ بها، ثم يَزيدُ فيه مَعنًى بعدَ مَعنًى بالمعرِفةِ بالأَسبابِ الدَّالَّةِ على المَعقولِ. . .

والذي هو عِندنا أنَّه غَريزةٌ والمعرفةُ عنه تكونُ

[تبيينُ المُحاسبي المَعنيينِ الآخَرينِ للعَقلِ]

وأمَّا الاثنتانِ اللَّتانِ جَوَّزتهما اللُّغةُ في الكِتابِ والسُّنَّةِ، وتَراجَعَ أَهلُ المعرِفةِ فيما بَينهم بالتَّسميةِ، فجوزَّتهما اللُّغةُ على حَقيقةِ المَعنى بأَن سمَّتهما عَقلًا؛ إذ كانا عَن العَقلِ، لا عن غَيرِه.

فإِحداهَما الفَهمُ لإِصابةِ المَعنى، وهو البيانُ لكلِّ ما سَمِعَ من الدُّنيا والدِّين أو مَسَّ أو ذاقَ أو شَمَّ، فسَمَّاه الخَلقُ عَقلًا وسَمَّوا فاعِلَه عاقِلًا . . . وهذه خَصلةٌ يشترِكُ فيها أهلُ غَريزةِ العَقلِ التي خَلقَها اللَّهُ تعالى فيهم مِن أَهلِ الهُدى وأهلِ الضَّلالةِ من بعضِ أهلِ الكَتابِ، لمَا تقدَّم عندَهم مِن أهلِ الدِّينِ، ويجتمعُ عليها أهلُ كُلِّ إيمانٍ وضلالٍ في أَمورِ الدُّنيا خَاصَّةً والمطيعُ والعاصي، وهو فَهمُ البَيانِ فالفَهمُ والبيانُ يُسمَّى عَقلًا ؛ لأنَّه عنِ العَقلِ كانَ.

والعَربُ إنَّما سَمَّتِ الفَهمِ عَقلًا؛ لأنَّ ما فَهِمتَه

فَقَد قَيَّدتَّه بعَقلِكَ وضَبطتَّه، كما البَعيرُ قد عَقلَ، أي: إنَّك قد قيدتَّ ساقَه إلى فَخِذَيهِ.

والمعنى الثَّالثُ: هو البَصيرةُ والمَعرِفةُ بتعظيمِ قَدرِ الأَشياءِ النَّافِعَةِ والضَّارَّةِ في الدُّنيا والآخَرَةِ، ومنه العَقلُ عنِ اللَّهِ تعالى.

فَمِن ذلكَ أن تَعظُمَ معرفتُه وبصيرتُه بعَظيمِ قَدرِ اللَّهِ تعالى وبقَدرِ نِعمَهِ وإِحسانِه وبعظيمِ قَدرِ ثوابِه وعِقابِه لينالَ به النَّجاةَ من العِقابِ والظَّفَرِ بالثَّوابِ، فإذا كانَ للَّهِ تعالى مُعظِّمًا كانَ للَّه مُجِلًّا هايبًا.

وإذا كانَ للَّهِ تعالى مُجِلًّا هايبًا كانَ منه مُستحيًا وإلى طَاعتِه مُسارِعًا ولمَساخِطِه مُجانِبًا.

وإذا كانَ مُعظِّمًا لما ينالُ به النَّجاةَ من العِقابِ والظَّفَرِ بالثَّوابِ عنُيَ بطلبِ العِلمِ ورَغِبَ في الفَهمِ والعَقلِ عن اللَّهِ عزَّ وجلَّ أَكثرَ هِمَّتِه.

وإذا عُنيَ بِطلبِ العِلم بذلِكَ استدلَّ به على عِظَمِ قَدرِ المولَى وقَدرِ ثَوابِه وعِقابِه.

وإذا استدلَّ على ذلك أَبصَرَ وفَهِمَ حَقائِقَ معاني البَيانِ. . . فإذا فَهِمَ عَقَلَ عَظيمَ قَدرِ اللَّهِ تعالى

وإذا عَظُم قَدرُ ذلك هابَ اللَّهَ تعالى، وفَرَقَ، ورَجا، ورَغِبَ، واشتاقَ، فكأنَّما يُعايِنُ ذلك كرأيِ العَينِ، فكانَ عنِ اللَّهِ تعالى عاقِلًا.

وسُمِّي ذلك مِنه عَقلًا؛ إذ كانَ بالعَقلِ طَلبَ ذلك، وبالعَقلِ فَهِمَ ذلك، وبالعَقلِ لَزِمَ ذلك، وبالعَقلِ جانَبَ ما يُزيلُه عن ذَلك، فهذا الذي عَقَلَ عن ربِّه. أَلم تَسمعه عَزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]؟[١]

قالَ: أُذنٌ عَقَلَت عنِ اللَّهِ تعالى يَعني عَقَلَ عن اللَّهِ ما سَمِعَت أُذناهُ ممَّا قالَ وأَخبَرَ، فهذا هو العقل. . . .»[٢]

---

(١) يُشيرُ المحاسبي إلى أنَّ تسميةَ ذلك «عقلا» من قَبيلِ «التَّوسُّعِ» المجازِ عندَ عُلماءِ العربيَّةِ.

(٢) «العقل وفهم القرآن» للمحاسبي: ٢٠١- ٢١٢.

يحسن بك الاستمرارُ في قِراءَةِ ما جاءَ به المحاسبي في كتابِه من أَنواعِ العَقلِ، فهوجِدٌّ نافِعٌ.

مُجمَلُ الأَمرِ أنَّه قد تَعارَفَ النَّاسُ العامَّةُ والخاصَّةُ قَديمًا وحَديثًا على إِطلاقِ مُصطلحِ «العقلِ» على ما به يتحقَّقُ التَّمييزُ بينَ الأَشياءِ، والبَصرِ بحقيقتِها وأَحوالِها. وكأنَّهم أقاموا كَلِمَة «العقلِ» في اصطلاحِهم مُقامَ كَلِمةِ «القَلبِ» في البَيانِ القُرآنيِّ. فهل لنا أَن نقولَ إنَّ هذا أَشبهُ بإِقامةِ الأَثَرِ مُقامَ أَداتِه.

ومَخرَجُ هذا أنَّ «العقلَ» أَوَّلُ أفعالِ القَلبِ الإِدراكيَّةِ، فلا يتأتَّى للقَلبِ أن يفقَه، أو أَن يَعلَمَ أو أَن يتدبَّرَ أو يتذكَّرَ أو أَن يَفعلَ أيًّا مِن أَفعالِ الإِدراكِ إلَّا إذا تحقَّقَ مِن عَقلِ ما يُريدُ فِقهَهُ وفَهمَهُ وعِلمَهُ وتَذَكُّرَهُ، فكانَ إطلاقُ كلمةِ «عقل» على أَداةِ إِدراكِ المعنويِّ «القلبِ» من قَبيلِ «التَّوسُّعِ» الذي يُسمِّيه البَلاغيُّونَ «مجازًا» فهو يُطلِقُه على الشَّيءِ اسمُ أَوَّلُ أفعاله لما له من عظيمِ المنزِلةِ، فبغَيرِ تحقُّقِ هذا الفِعلِ منه تتعطَّلُ كُلُّ مستوَياتِ الإِدراكِ القَلبيِّ الأُخرى، فهذا العَمَلُ هو أَصلُ الأَمرِ فيه ومَبدؤه، وسائِرُ عملِ القَلبِ مُرتَّبٌ عليه، فكانَ ذلكَ العَملُ هو رأسُ الأَمرِ وذِروتُه ومُنتهاه،

فَفي هذه التَّسميةِ إِلماعٌ إلى قِيمةِ ما سُمِّيَ به وإِلى أَهمِّيَتِه حَثًّا على عَظيمِ الاعتناءِ به ورِعايتِهِ وحِمايتِه.

وفوقَ هذا كُلُّ ثِمارِ فِعلِ القَلبِ المُترتِّبةِ على «التَّعقُّلِ» هي بحاجَةٍ إلى عَقلِها وحُكمِها وتقييدِها، فالتَّعقُّلُ أَمرٌ يُستهَلُّ به، ويَبقى حاضِرًا مُحتاجًا إليه لِوَعي وحُكمِ كُلِّ ما يُفضي إليه أَيُّ فِعلٍ من أَفعالِ «القلب».

* * * * *

مُجملُ الأمرِ أنَّ «العقلَ» الذي أُريدُه هُنا هو القُوَّةُ التي بها يَتِمُّ ضَبطُ ثِمارِ أَفعالِ القَلبِ من التَّفكيرِ والتَّبصُّرِ والتَّدبُّرِ والمُناقَدةِ والمُوازَنةِ والإِمساكِ بها، وتمييزِ الخَبيثِ مِن الطَّيِّبِ، وما فوقَ ذلكَ الضَّبطِ؛ لِيتسنَّى اختيارُ الطَّيِّبِ وتقريرُه واستثمارُه.

فالوَظيفةُ الرَّئيسةُ للعَقلِ إنَّما هي الضَّبطُ والإِمساكُ، والحَجرُ عن المَضارِّ، والنَّهي عن المَفاسِدِ، فهو: «عَقلٌ» و«حِجا» و«حِجرٌ» و«نُهى»، وهو «لُبٌّ» لأنَّه خالِصُ

القَلبِ، وهو «بَصيرةٌ» مِن أَنَّه مُدرِكٌ للأَشياءِ على حَقيقتِها إذا لم تكُن عَوائِقُ عنِ الإِبصارِ من شُبهةٍ، أو شَهوةٍ، أو مَعصيَةٍ، أو عَصبيَّةٍ، أوهَوًى.. ولِذا نَجِد أَهلَ العِلمِ يُفسِّرونُ قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تُدرِكونَ الحَقَّ مِن الباطِلِ وتَختارونَ الحَقَّ.

إذا ما كانَتِ الوظيفةُ الرَّئيسةُ لـ«العقلِ» باعتبارِه فِعلًا مِن أَفعالِ «القَلبِ» وكانَت أَفعالُ القَلبِ ذاتَ علائِقَ ببعضِها، فمِنها ما هو مُتولِّدٌ مِن غَيرِه، ومنها ما هو ضابِطٌ غيرَه من تلك الأَفعالِ، وأَعمُّها جَميعًا فِعلُ «العقلِ» كانَ أَهلًا لأن يُطلَقَ ويُرادَ به غيرُه مِن الأَفعالِ القَلبيَّةِ، ومنه نَفهمُ وَجهَ تفسيرِ أَهلِ العِلمِ «الألبابِ» بالعُقولِ في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ونحوِه.

وأَهلُ العِلمِ حينَ جعلوا مِن مقاصِدِ الشَّريعةِ الحِفاظَ على العَقلِ الفِطريِّ الغَرزيِّ، وجعلوا ذلكَ عَديلًا للحِفاظِ على النَّفسِ «الحياةِ» دَلُّوا بهذا على أنَّ الحَياةَ بِغيرِ هذا العَقلِ هي وعَدمُها سواءٌ، وهذا يَهدي إلى أنَّه ليست أَقدارُ

الأشياءِ بذواتِها بل بما يجعلُها ذاتَ قِيمةٍ وفَضلٍ ومَكانَةٍ، وهذا نَهجٌ في تَبيينِ مَناقِبِ الأَشياءِ من حَيثُ أَفعالُها وآثارُها جِدُّ قويمٍ، فما أَنتَ بنَسبِكَ، بل أَنتَ بحَسبِكَ؛ أي: ما يُحسَبُ لكَ مِن الأَقوالِ والأَفعالِ والأَحوالِ، فما أَغنى عن أَبي لَهبٍ قُرَشيَّتُه، وما ضَرَّ سيِّدَنا بلالًا رضي اللَّه عنه حَبَشيَّتُه.



الفصل الثالث

أنواع العقل

يتنوَّعُ «العَقلُ» الذي هو قُوَّةٌ مِن قُوى «القَلبِ» وَفقًا لما يَعملُ فيه، فيكونُ عَقلًا فِقهيًّا، وعَقلًا لُغويًّا، وعَقلًا بَيانِيًّا «بلاغِيًّا» وعَقلًا نقديًّا، وعَقلًا فَلسفيًّا، فَلكُلِّ مجالٍ مَعرفيٍّ يَعملُ فيه «القَلبُ» عَقلٌ، ولكُلِّ مِنهاجٌ وحَركةٌ وغاياتٌ يُرادُ الوصولُ إِليها.

ومَقاصِدُ العِلمِ، وطَبيعةُ المَعلومِ هما اللَّذانِ يَصطفيانِ المَنهجَ الذي يَعملُ «القلبُ» عَقلًا وتَذكُّرًا وتَحيُّلًا وتَفكُّرًا وفِقهًا وفَهمًا.

ما به يكونُ العَقلُ بلاغيًّا:

إذا ما كانَ العَقلُ فِعلًا مِن أَفعالِ القَلبِ، وكانَ نعتُ العَقلِ مُرتبِطًا بِنوعِ ما يَعملُ فيه، فإنَّ ذلكَ يُبيِّنُ لكَ أنَ

«العَقلَ» لا يكونُ بلاغيًّا، أو فِقهيًّا، أو لُغويًّا، أو فَلسفيًّا إلا باعتبارِ ثلاثَةٍ:

باعتبارِ مناهجِ النَّظرِ الذي يُمارسُه.

وباعتبارِ ما يَعملُ فيه.

وباعتبارِما يَقصِدُ إلى تَحقيقِه واستجنائِهِ بذلك النَّظَرِ.

هذه الثَّلاثَةُ هي التي بها يَكونُ نعتُ العَقلِ بأنَّه «بلاغيٌّ» أو «فلسفيٌّ» أو «فِقهيٌّ» أو «أُصوليٌّ» ونحو ذلك. . .

وليسَ الاعتبارُ بمجالِ الأَسفارِ التي يكونُ فيها، فَلَيسَ العقلُ «الفَلسفيُّ» بمنحَصِرٍ في أَسفارِ الفَلاسِفةِ، وكذلكَ العَقلُ «الفِقهيُّ» ليسَ بِمُنحَصرٍ في أَسفارِ فِقهِ الشَّريعةِ، والعَقلُ «البَلاغيُّ» كذلك ليسَ بمُنحَصِرٍ في ما يُعرَفُ بأَسفارِ المُدوَّنةِ البَلاغِيَّةِ المَعهودةِ عِندَ النَّاشِئةِ في طَلَبِ العِلمِ. بل إنَّكَ واجدٌ هذا العَقلَ في غيرِ تلك الأَسفارِ:

قد يكونُ «العَقلُ البَلاغيُّ» أَقوى حُضورًا وأَنفذَ فِعلًا في كِتابٍ من كُتبِ الفِقهِ، وأُصولِهِ أو التَّفسيرِ وعُلومِهِ أواللُّغةِ

وفُنونِها ونحوِ ذلك، فَمَن يَقرأْ كِتابَ «أحكام القرآن» لأبي بكرٍ الجصَّاصِ، أوكِتابَ «الخصائص» لابن جِنِّي، أو «شرحَ كتابِ سيبويه» لأبي سعيدٍ السِّيرافيِّ يَجِدِ «العَقلَ البَلاغِيَّ» حاضِرًا فَتيًّا. كذلك تَجِده في كِتابِ «التَّلويحِ» للسَّعدِ التَّفتازاني، وربُّما لا يَجِدهُ كذلكَ في كِتابٍ من كُتبِ عِلمِ البَلاغَةِ المُتداوَلةِ بينَ النَّاشِئةِ مِن طُلَّابِ العِلمِ.

«العَقلُ البَلاغِيُّ» يتمثَّلُ في المُمارَسةِ العِلميَّةِ التي تَتَّخِذُ مَناهِجَ النَّظرِ البلاغيِّ، وأَدواتِه، وضَوابِطَه، وغاياتِه وأَهدافَه في أَثناءِ النَّظرِ في أيِّ بيانٍ من أَنواعِ البَيانِ العَليِّ المُعجِزِ، أو البيانِ العالي البَشريِّ.

فَلِعِلمِ البَلاغَةِ مِنهاجُهُ وأَدواتُه وضَوابطُهُ، وأَهدافُهُ ومَجالاتُه التي يَعمَلُ فيها، فكُلُّ مَن اتَّخذَ مِن ذلكَ في أثناءِ نَظَرِه أيَّ ضَربٍ من ضُروبِ البَيانِ، أو في أيِّ مَجالٍ مِن مَجالاتِ النَّظرِ، فإنَّ المَرءَ حِينئَذٍ يُمارِسُ العَملَ بعَقلٍ بلاغيٍّ.

العَقلُ البَلاغيُّ الذي أَعتدُّ به هنا لَيسَ هو العَقلُ الذي غايتُه صِياغَةُ قوانينِ الكِتابةِ بمعيارِ الجَودَةِ والجَمالِ،

لِيُنشِئَ نَصًّا على مِنوالِ نَصٍّ مُستَمجَدٍ كَلَّا.

العَقلُ الذي أَعتدُّ به هو العَقلُ الذي يَسعى إلى النَّظرِ في بيانٍ قائمٍ يُقارِبُه، ليَثقُبَه، لِيَفتحَ خَزائِنَه.

هو العَقلُ البَلاغيُّ المُستَقبِلُ للبَيانِ، ليَفهَمَ ما هو مَكنونٌ فيه، وأَعلى ما يُقبِلُ عليه العَقلُ البَلاغِيُّ، ليَفهمَ ما يَطعمُ مِن خَزائِنِه هو بَيانُ الوحي قُرآنًا وسُنَّةً، هو العَقلُ التأويليُّ للبَيانِ، فإِذا ما استخلَصَ مِن طَرائِقِه إلى الفَهمِ مَنهَجًا يَستَرشِدُ به مَن بَعدَه ولا يَتعبَّدُ؛ لمحاولَةِ البُلوغِ إلى المَقصِدِ والمَأَمِّ، لا حرجَ، لكن ليسَ هذا هو المحجُّ الأَعظَمُ الأَمجَدُ.

والعَلاقَةُ بينَ صَريحِ العَقلِ البَلاغِيِّ ونَصيحِهِ ووَثيقِ النَّقلِ وصَحيحِه ليسَت بَعلاقَةِ استخلافٍ، يَخلفُ العَقلُ النَّقلَ، بل هي عَلاقَةُ إِعمالٍ واستثمارٍ، إِعمالُ صَريحِ العَقلِ البَلاغيِّ ونَصيحِه في صَحيحِ النَّقلِ ووَثيقِه. هذا الإِعمالُ هو «التَّأويلُ».

* * *

خصائصُ العَقلِ البَلاغيِّ:

إذِا ما كانَت الخَصائصُ النَّوعيَّةُ للأَجسادِ تَتَجلّى عندَ اكتِمالِ نموِّ هذه الأَجسادِ لمَا لها مِن حَدٍّ تصِلُ إليه، ثم تَتَوقَّفُ بل تتحرَّكُ نَحوَ الهُبوطِ في اتِّجاهٍ عكسيٍّ أَسرعُ مِن حَرَكَتِها نَحوَ الصُّعودِ - إذا ما كانَ ذلكَ، فإنَّ الخَصائِصَ النَّوعيَّةَ للعُقولِ تبدأُ في الانكِشافِ مع بدايةِ نُموِّها، وتستمرُّ في حَرَكَةٍ تصاعُديَّةٍ معَ استمرارِ نُموِّها، ولا تَصِلُ إلى نَهايةِ الاكتمالِ، خُضوعًا لطَبيعةِ حَركةِ النَّماءِ العَقليِّ الذي لا يَعرِفُ نُقطةَ اكتمالٍ، فَكثيرٌ من قُوى الإِنسانِ الحسِّيَّةِ تَعرِفُ نُقطةَ اكتمالٍ، إلَّا أَنَّ القُوى غيرُ الحِسِّيَّةِ يَغلِبُ على جُلِّها أو كُلِّها، وفي الصَّدراةِ منها القوَّةِ «العقليَّةِ» أنَّها لا تعرِفُ نُقطةَ الاكتمالِ «ذِروةَ الهَرمِ» فنظريَّةُ التَّكوينِ الهَرَميِّ، ليسَت مِن خَصائِصِ بناءِ «العقل» البَشريِّ، بل نَظَريَّةُ التَّكوينِ العَقليِّ - فيما أَفهمُ من واقِعِ مُراقَبَةِ العَقلِ البَشريِّ في وجودِه العِلمِيِّ المَعرفيِّ - تتخِذُ مبدأً «ارقَ» و«اصعَدْ» ما دُمتَ حيًّا. فالعَقلُ له مبدأٌ، وليس

له مُتنهى إلَّا بِلَحظةِ فِراقِ الدُّنيا، وحِينئِذٍ وجودُه نَماءً وتطورًا ينتقِلُ مِن مُصاحَبَةِ مالِكِه إلى ما أَنتجَه مِن العِلمِ والمَعرِفَةِ والحِكمةِ، فهو باقٍ بقاءً حيًّا متمدِّدًا في حَرَكَتِه الرَّأسيَّةِ والأُفُقيَّةِ في حُضورِه في عُقولِ مُحاورِيه حِوارًا يحفظُ له حُضورَه وتَجدُّدَه على الرَّغمِ مِن غَيبةِ صاحِبِهِ

تأسيسًا على هذا، فإنَّ لكلِّ عَقلٍ نَوعَي خَصائصَ مائِزةٍ، مُضافَةٍ إلى السِّماتِ الجَمعيَّةِ لأَنواعِ العُقولِ، وهذا يَحملُني إلى أن أَسعى إلى تَبصُّرِ شَيءٍ مِن خصائِصِ «العقل البلاغي».

❊ ❊ ❊

للعَقلِ البَلاغِيِّ خَصائصُ يتَّسِمُ بها، ولا سيَّما في تأويلِه البيانَ القرآنيَّ منها ما هو مِن قَبيلِ التَّفرُّدِ، ومنها ما هو مِن قَبيلِ التَّميُّزِ بمَزيدِ الاعتناءِ. ويُمكِنُ إجمالُ القَولِ فيها على مَرحَلتَينِ:

الأُولى في الخاصَّةِ الأُمِّ المُحكِمةِ سائِرَ الخصائصِ،

ومَوقِعُ سائِرِ الخصائصِ الأُخَرِ مَوقِعَ المُفصَّلِ مِن المُحكَمِ.

والأُخرى الخصائصُ المُفصِّلةُ الخاصَّةَ الأمَّ، وهي خَصائصُ لا يتأتَّى لي أَن أَستحصيَها وأَن أُحيطَ بها.

الخاصَّةُ الكليَّةُ الأمُّ المحكِمةُ:

تتشكَّلُ هذه الخاصَّةُ من ثلاثَةٍ:

الأوَّل: يتمثَّلُ في موقِعِ العَقلِ البَلاغيِّ من البيانِ الذي يَعملُ فيه تأويلًا.

والثَّاني: يتمثَّل في جَوهرِ فِعلِه التَّأويليِّ في هذا البيانِ.

الثَّالثُ: المَنهجُ الذي يتمُّ به هذا الفِعلُ التَّأويليَّ.

بيانُ هذا:

الأوَّل: مَوقِعُ العَقلِ البَلاغيِّ مِن البيانِ الذي يَعملُ فيه تأويلًا.

العقلُ البلاغيُّ العربيُّ عَقلٌ نشَأَ لتحقيقِ رسالةٍ رئيسةٍ هي رسالةُ الفَهمِ عنِ اللَّهِ سبحانه وبحمده، فمُهمَّتُه الرَّئيسةُ استثمارُ نِعمةِ البيانِ فَهمًا ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ٤]

أمَّا نِعمةُ البَيانِ إفهامًا فإنَّها تأتي في المَقامِ التَّالي.

العقلُ البلاغيُّ العَربيُّ ينطَلِقُ في عَلاقَتِه بالبَيانِ القُرآنيِّ مِن أنَّها عَلاقةُ عقلٍ مَخلوقٍ يفعلُ تأويلًا في بَيانِ اللَّهِ جلَّ جلالُه الخالِقُ ذلك العَقلَ

هذه العَلاقَةُ لها أَثرٌ قَويٌّ فَتيٌّ في حَركةِ هذا العَقلِ في فِعلِهِ التَّأويليِّ، وهو أَثرٌ يضبِطُ حركَتَه، ويُنظِّمُها، ويُحفِّزُها، وليسَ بالأَثَرِ المكَبِّلِ، أوالمُثبِّطِ والمُرَهِّبِ.

إجلالُ العَقلِ البلاغيِّ لمَا يَعمَلُ فيه تأويلًا لا يَضَعُ قَيدًا مُكَبِّلًا، بل يُقيمُ حافِزًا للحَرَكَةِ المُنضَبطةِ المُستديمَةِ المتجدِّدةِ المُتنوِّعَةِ المُفعَمةِ بالأَملِ في بُلوغِ الثَّمرَةِ من أنَّ مجالَ الفِعلِ التَّأويليِّ «البيانِ القرآنيِّ» مَجالٌ خَصبٌ مُثمِرٌ يؤتي أُكلَه كُلَّ حِينٍ بإذنِ قائِلِه ومُنَزِّلِه سبحانه وبحمده.

فهذا الإجلالُ يجعَلُ العَقلَ البَلاغيَّ ينظُرُ إلى فِعلِه التَّأويليِّ للقُرآنِ عَملًا عباديًّا، وكُلُّ عَملٍ عِباديٍّ إنَّما هو مَحلُّ الإتقانِ واستفراغِ الجُهدِ، واستِكمالِ الآلَةِ، وصِحَّةِ المَنهجِ مع اصطبارٍ على تَحقيقِه، والنَّصيحةِ لما يَعملُ فيه.

فَمَن زَعمَ أنَّ تَبجيلَ العَقلِ لما يَعملُ فيه يكونُ عائِقًا له عن أن يُبصرَ ما في المَنظورِ فيه مِن نقصٍ أو عِوجٍ أو خَللٍ. . . فإنَّه لم يُحسِنِ البَصرَ بحقيقةِ العَلاقَةِ بينَ هذا العقلِ والقُرآنِ، ولم يُحسِن رؤيةَ الفَرقِ العَميقِ والفَسيحِ المُحقَّقِ بينَ بيانِ اللَّهِ سبحانه وتعالى في القُرآنِ المُعجِزِ وكلِّ البَياناتِ الأُخَرِ، ولم يُبصِر أنَّ فَضلَ كلامِ اللَّهِ تعالى على كلامِ غيرِه، كمثلِ فَضلِه على غيرِه، وأنَّ بيانَه ليسَ كمثلِه بيانٌ، وبيانَ غيرِه من صِفتِه الجوهريَّةِ النَّقصُ والخَللُ والخطأُ.

ولم يُحسِن تَعقُّلَ قولَ اللَّهِ سبحانه وبحمده: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] الدَّالَّ بدليلِ الخِطابِ «مفهوم المخالفة» أنَّ كلَّ ما ليسَ قُرآنًا إذا تدبَّره السَّامِعُ وَجَدَ فيه اختلافًا كثيرًا. فتلك فارقةٌ بين البَيانَينِ[١]

---

(١) ينظر في دعوى أنَّ النَّظرةَ التَّبجيليَّةَ الإيمانيَّةَ بالقُرآنِ تُعيقُ العَقلَ عن حُسنِ دراسةِ القُرآنَ كتابُ «الفكر الأصولي واستحالة التأصيل». (م.س) هامش ص: ٢٩.

قد يكونُ تبجيلُ العقلِ لما يعملُ فيه من البيانِ ذا أَثَرٍ سيءٍّ حينَ يكونُ البيانُ الفاعِلُ فيه العَقلُ تأويلًا بيانًا بشريًّا، من حِليتِهِ النَّقصُ والخَطأُ والعِوَجُ. فَمِثلُ هذا لا يَستقيمُ للعَقلِ أن يَخضَعَ لسُلطةِ تبجيلِ هذا البَيانِ.

أمَّا إذا كانَ هذا البيانُ هو بيانُ اللَّهِ سبحانه وتعالى الذي نَعتَه جلَّ جلالُه بقوله تعالى: في مُستفتَحِ سورة «البقرة» فقال:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢].

قوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ بيانٌ محكَمٌ قاطِعٌ بأنَّه ليسَ محلًّا لأن يتوقَّفَ فيه عَقلٌ مُعافى من داءِ الغَفلةِ والشُّبهةِ والعَصبيَّةِ العَمياءِ، وكلُّ داءٍ يُعيقُ عن صَحيحِ الرُّؤيةِ ونافِذِها.

هذا اليقينُ يجعلُ رسالةَ العَقلِ البلاغيِّ في عَلاقتِه بالقُرآنِ عَلاقةَ «فهمٍ» لا عَلاقةَ بَحثٍ عن عِوَجٍ ونَقصٍ وخَلَلٍ، فيتفرَّغُ العَقلُ لهذِه المُهمَّةِ التي تَبدأُ ولا تَنتهي.

هذا الموقعُ الذي يقعُه العَقلُ البلاغيُّ من البيانِ القُرآنيِّ يضبِطُ مَنهجَه وحَركَتَه ويُعيِّنُ غايَتَه.

***

والثاني: يتمثَّلُ في جوهرِ فِعلِهِ التَّأويليِّ في هذا البيانِ.

جوهرُ فعلِ العَقلِ البلاغيِّ في البيانِ القرآنيِّ أنَّه فِعلٌ استنباطيٌّ سِياقيٌّ: واستنباطُ البيانِ القُرآنيِّ في حَقيقتِه فِعلٌ كاشِفٌ عمَّا هو مَوجودٌ غائِرٌ فيه لا سَبيلَ لكُلِّ ناظِرٍ أن يُبصرَه. إنَّما يُبصرُه أولو البَصائِرِ النَّافِذَةِ(١).

(١) مما يَحسُنُ استحضارُه هنا بيانًا عن حِليةِ العقلِ العربيِّ، وأنَّه عقلٌ استنباطيٌّ كاشِفٌ لما هو غائِرٌ، وليسَ عقلًا إسقاطيًّا يتوهَّمُ ما ليسَ بموجودٍ، فينسبه زورًا ما ذَكرَه عبدُ القاهرِ في شأنِ صانِعِ أُسلوبِ التَّشبيهِ:
«إنما قيل: شبَّهت، ولا تعني في كونك مشبِّهًا أن تذكرَ حرفَ التشبيهِ أو تستعير، إنما تكون مشبِّهًا بالحقيقةِ بأن ترى الشَّبهَ وتبيِّنه، ولا يمكنك بيانُ ما لا يكون، وتمثيلُ ما لا تتمثَّله الأوهام والظنون، ولم أُرد بقولي إنّ الحذق في إيجاد الائتلاف بين المختلفات في الأجناس، أنك تقدر أن تُحْدِثَ هناك مشابهةً ليس لها أصل في العقل، وإنما المعنى أنّ هناك =

وعلى قَدرِ طاقةِ المستنبِطِ يكونُ كشفُه شيئًا ممَّا هو مَكنونٌ مكنوزٌ، ويَبقى في المستنبَطِ منه ما لا يَنضُبُ ولا يتناهى، فهو لا يَخلَقُ على كَثرَةِ الرَّدِّ، كما دَلَّ عليه الحَثُّ على تَدَبُّرِه.

والعَقلُ البلاغيُّ لا يتبصَّرُ البيانَ القرآنيَّ ليُثَوِّرَ ما فيه ويَستنبِطَ مكنُونَه إلَّا في سِياقِهِ المقاليِّ على امتدادِه، وسياقِهِ المقاميِّ على تَنوعِهِ، فهو أَنفرُ عن القِراءةِ العِضينِ «التجزيئية» فَمِن أُصولِه أن يَرقُبَ البيانَ في صُحبةِ مُراقبةِ ما هو منه بِسَبيلٍ، لا يصرفُ بصيرتَه إلى ما يتدبرُّه من البيانِ، ويَقصُرُها عليه غيرَ مُستجمِعٍ سِباقَه ولِحاقَه، ثم سياقَه المَديدَ «الجامع بين الكتاب والسنة معا» حتى وإنِ اقتصرَ تبيينُه اللِّسانيُّ على ما في هذه الجُملةِ أو الآيةِ من خصائِصِ الإِبانةِ عن مَكنونِ مَعانِيها. ففرقٌ بينَ ما يَستجمِعُه في قَلبِهِ

= مشابهاتٍ خَفِيّةً يدقُّ المسلك إليها، فإذا تغلغل فكرُك فأدركها فقد استحققتَ الفضل».

«أسرار البلاغة»: ١٥١- ١٥٣.

هذا من عبد القاهر جِدُّ عَظيم في مَنهجيَّةِ قِراءةِ الكَونِ والبيانِ والإِعرابِ عمَّا هو قائِمٌ في أَيٍّ.

لحظاتِ التدبُّرِ والتَّلقِّي والفَهمِ وما يُعرِبُ عن خَصائصِه في طَورِ الإِبانةِ إفهامًا، فرؤيتُه في لحظاتِ التَّدبُّرِ والتَّلقِّي والفَهمِ أَرحَبُ وأَمَدُّ وأَغوَرُ، وما يعبِّرُ عن خَصائِصِهِ أَوجَزُ. تَتَّسِعُ الرَّؤيةُ وتنفُذُ، وتضيقُ العِبارةُ وتُوجَزُ.

فإذا وجِدَ مِن النَّاظرينَ ثِمارُ فِعلِ العَقلِ البلاغيِّ في البيانِ القرآنيِّ مَن لا يَملِكُ مَهارةَ استحضارِ السِّياقاتِ في قَلبِهِ، فإنَّ التَّبِعةَ عليه، ففريضةٌ عليه أن يؤهِّلَ نفسَه لمثلِ ذلك، وإلَّا كانَ متردِّيًا في المَعرَّةِ.

* * *

الثالث: يتمثَّلُ في أنَّ منهجَ فعلِ العَقلِ البلاغيِّ العَربيِّ تأويلًا للبيانِ القُرآنيِّ ثُنائيُّ التَّكوينِ:

الأوَّلُ: يتمثَّل في الفِعلِ الاستقرائيِّ الوَصفيِّ لما هو مَناطُ التَّأويلِ.

والآخر: يتمثَّلُ في التَّحليلِ لما تَمَّ استقراؤه ووصفُه وفي استنباطِ الحقيقةِ الكامِنَةِ، وتقريرِها وتَقريبِها للفَهمِ.

ليسَ هو بالعَقلِ الجامِعِ الواصِفِ المُصنِّفِ، وكَفى، بل ذلك الفِعلُ عنده تَوطِئَةٌ لفِعلٍ هو الغايةُ: هي التَّحليلُ واستنباطُ مَعاني الهُدى، وتقريرُها وتقريبُها للفَهمِ.

*****

الخَصائِصُ التَّفصيليَّةُ للعَقلِ البَلاغيِّ:

من خَصائِصِ العَقلِ البلاغيِّ المنسولَةِ مِن الخاصيَّةِ الكُليَّةِ الكُبرى أَنَّ كُلَّ كَلِمةٍ بل كُلَّ حَرفِ مَبنى أوحركتِه له أَثرٌ بالِغٌ في تَحقيقِ المَعنى، وتَنوُّعِهِ واتِّساعِهِ:

= تَنوُّعُه يَمنَحُ البَيانَ فَضيلةَ إِغناءِ كُلٍّ بما هو طِلبتُه.

= واتِّساعُهُ يَمنَحُ البَيانَ فَضيلةَ جَمعِهِ المؤمنينَ به على تَنوُّعِ قُدراتِهم ومساقاتهم الاجتماعيَّةِ في حَوزَتِه وفُسطاطِه.

ومِن ثَمَّ كانَ اعتناءُ العقلِ البلاغيِّ بتأويلِ القِراءاتِ المتواتِرَةِ، وهي في جُملتِها قائِمةٌ في تنوُّعِ الحروفِ أو حركاتِها، أو تنوُّعِ صِيَغِ الكَلِمِ، وقَلَّما تكونُ في مَواقِعِها،

فإذا ما كانَ هذا التَّصريفُ البيانيُّ القائِمُ في أَصغَرِ مُكوِّناتِ صورةِ المعنى هو مَحلُّ اعتناءِ العَقلِ البلاغيِّ، واستثمارِه واستنباطِ ما هو مَكنونٌ فيه مِن معاني الهدى الإحسانيَّةِ[1]

«العقلُ البلاغيُّ» يرى في كُلِّ تَصريفٍ بيانيٍّ فَيضًا مِن عَطاءِ المعاني الإِحسانيَّةِ، وأنَّ ذلك حريٌّ أَن يكونَ طِلبتَهُ ومَأمَّه ومَحجَّه.

وهو يَرى أنَّ مِن مَقاصِدِ الإِعجازِ البلاغيِّ للقُرآنِ تَحقيقَ اتِّساعِ التَّأويلِ ليتَّسِعَ لتَنَوِّعِ حَركةِ الحياةِ وتَجدُّدِها إِلى يومِ القِيامَةِ، مِن أَنَّه كِتابُ اللَّهِ تعالى للنَّاسِ جميعًا، فما هو بصالِحٍ لكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ فَحسب، بل هو مُصلِحٌ كُلَّ زَمانٍ ومَكانٍ بما فيه مِن مَعاني الهُدى التي لا تخلَقُ على كَثرَةِ الرَّدِّ، وتَنقضي عجائِبُها التي بها تَستقيمُ حَركةُ الحياةِ كَونًا وإِنسانًا.

* * *

(١) لمزيد عرفانٍ بهذا راجع كتابي «سبل استنباط المعاني من الذكر الحكيم» في مبحثِ تأويلِ قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠] والتوجيه البلاغي لما فيها من القراءات.

ومِن خَصائِصِ العَقلِ البَلاغِيِّ أنَّه في طِلبتِه المعانيَ الإِحسانيَّةَ القائِمةَ في بيانِ الوحي، لا يَستشرِفُ إليها إلَّا انطلاقًا من المعنى الجُمهوريِّ لهذا البيانِ.

فهو لا يَفصِلُ بين «التَّنزيلِ» و«التَّأويلِ» فتَأويلُ العَقلِ البلاغيِّ لا يذهَبُ لشيءٍ يذهبُ «التَّنزيلُ» مَنطوقًا في سِياقِه إلى ضِدِّهِ، بل يَذهَبُ «التَّأويلُ» إلى ما هو منه وإليه، فـ«التنزيلُ» في «العقلِ البلاغيِّ» مَصدرُ كلِّ «تأويلٍ» ومَرجِعُهُ.

فمُنطلقُه ظاهِرُ «التَّنزيلِ» إلَّا ما دَلَّ دَليلٌ صَحيحٌ صَريحٌ على أنَّ ظاهِرَه غَيرُ مُرادٍ، فحينَ ذلك يُبينُ عمَّا إليه سِيقَ البيانُ سَوقًا أَصليًّا وسَوقًا تَبعيًّا سواءٌ كانت تبعيَّةَ لزومِ دلالةٍ أو تَبعيَّةَ استتباعِ إفادَةٍ. وبينهما فَرقٌ لا يَخفى على ناشِئٍ في طَلَبِ عِلمِ البلاغَةِ العَربيِّ.

هذه الخاصَّةُ لـ«العقل البلاغيِّ» تُبينُ لكَ أنَّه ليسَ منه البتَّةَ مِن فاصلٍ بين «تنزيلِ القرآنِ» و«تأويلِه»، فالفَصلُ بينَهما يُخرِجُ صاحِبَه من فُسطاطِ «التَّأويلِ» المُثمِرِ الفَهمَ عنِ اللَّهِ تعالى إلى مَعرَّةِ «التَّقويلِ» الذي قد يُفضي بصاحِبِهِ إلى التَّردِّي في هاويةِ الإلحادِ في آياتِ اللَّهِ سبحانه وتعالى.

❊ ❊ ❊

ومِن خصائِصِ «العقلِ البلاغيِّ» أنَّه عَقلٌ قائِمٌ بالوفاءِ بحقِّ النَّفسِ الإنسانيَّةِ المُنزَّلُ هذا البيانُ مِن أجلِها .

هو مَهمومٌ بتهيئَةِ هذه النَّفسِ لحُسنِ تلقِّي هذا البَيانِ، فهو أَشبهُ بمَن جَعلَ وَكدَه في الحياةِ استصلاحَ الأَرضِ لتكونَ أَهلًا لأَن يَنزِلَ عليها الغَيثُ، فتُنبِتَ الكَلأَ والعُشبَ الكَثيرَ .

النَّفسُ الإنسانيَّةُ مَحطُّ عِنايةِ «العَقلِ البلاغيِّ» هو يَعملُ على تَفعيلِ ما يُنتِجُه العَقلُ الفِقهيُّ من استنباطِ أَحكامِ الشَّريعةِ، وما يَستنبِطُه العَقلُ العَقَديُّ من أُصولِ العَقيدةِ الإِسلاميَّةِ الصَّفاءِ، فهو الذي يَجعلُ لمُنتَجِ هذينِ العَقلينِ حُضورًا فاعِلًا في النَّفسِ الإِنسانيَّةِ، فحاجتُهما إليهِ جِدٌّ عَظيمةٍ.

مِن هنا كانَ اعتناؤه البَالِغُ بالمعاني التَّثقيفيَّةِ للنَّفسِ المتلقِّيةِ، لتُقبِلَ على ما يَتوافَدُ عليها مِن مَعاني الهُدى إِقبالَ مُتشوِّفٍ مُتَشرِّفٍ مُحبٍّ، فلا تَرى تلك النَّفسُ في ما تُدعى إليه مِن مُرادِ اللَّهِ الشَّرعيِّ أمرًا ونهيًا تكليفًا تؤدِّيه إِرغامًا، بل ترى فيه عطيَّةً وأخذًا بها إلى مَقامٍ أَسمى وأَجدى عطاءً .

***

ومِن خَصائِصِ العَقلِ البلاغيِّ أنَّه ذو اعتناءٍ بتبصُّرُ ظاهرتَينِ بيانيَّتينِ يلحظُها أَهلُ القُرآنِ فيه.

الأولى: ما فيه مِن سُنَنٍ بيانيَّةٍ يَجري عليها في سِياقاتٍ عِدَّةٍ، وما فيه مِن تراكيبَ وجُمَلٍ يُقيمُها في سِياقاتٍ مُتنوِّعةٍ. فهذا غيرُ قليلٍ في البيانِ القُرآنِ لا يَخفى على مَن له بَصرٌ بِفعلِ العَقلِ البلاغيِّ، ولا يتَّسِعُ المَقامُ هنا لذِكرِ شَيءٍ مِن فِعلِه فيها.

والأُخرى: حُضورُ فرائِدَ في سياقاتٍ خاصَّةٍ لا تَرِدُ فيه إلا مَرَّةً واحدةً.

«العقلُ البلاغيُّ» كما أنَّه ذو اعتناءٍ بما كانَ وافِرَ الحُضورِ في السِّياقِ القُرآنيَّةِ على تنوُّعِها، هو أيضا حَفيٌّ باستبصارِ الفَرائِدِ، وحِكمةِ إِيقاعِها في سِياقِها.

هو يَرى في هذا الإِيقاعِ إشارةً إلى أنَّ في هذا «السِّياقِ» الذي وَرَدَ فيه هذه الفَريدةُ خُصوصيَّةً اقتضَت اختصاصَه بهذه «الفريدة».

وهذا فيه هِدايةٌ إلى مَنهجِ تَبَصُّرِ شأنِ هذا «السِّياقِ» مِن

خِلالِ الوقوفِ على ما في هذه «الفريدة» من خُصوصيَّةٍ في المَعنى وصُورتِه، فيَستهدي بالعِرفانِ بخصوصيَّةِ الفريدةِ إلى خُصوصيَّةِ «السِّياقِ».

ذلك أنَّ استبصارَ خصائِصِ «السِّياقِ» ولا سيَّما سِياقُ «السُّورةِ» فيه لُطفٌ قد يكونُ النَّاظِرُ غير مُستَولٍ على بَصيرتِه في فُتُوَّتِها وحُضورِها على امتدادِ السِّياقِ، فيَغفُلُ عن مُتابَعةِ مَعارجِ المعنى فيه وتعرُّجاتِه والتفاتاتِه واستطراداتِه، فيفوتُه شيءٌ ذو قَدرٍ، فيكونُ له في استبصارِه شأنَ «الفريدةِ» وهو ذو مِساحةٍ تركيبيَّةٍ محدودةٍ ما يَجعلُه مُهيمنًا وعاقِلًا للأوابِدِ(١)

* * *

ومِن خصائصِ العَقلِ البلاغيِّ عنايتُه بتبصُّرِ الفروقِ

(١) في كتاب شيخنا القائم لتدبر أسرار البيان في سور «آل حم» فيضٌ بالغٌ من صُورِ فِعلِ العَقلِ البلاغيِّ في تأويلِ ما هو مِن السُّننِ البَيانيَّةِ للقُرآنِ، وما هو فرائِدُ لا تَرِدُ إلا مَرَّةً أو ما يَرِدُ نادرًا. وقارئُ الكتابِ يلحَظُ عِنايةَ شيخِنا بمِثلِ هذا، ولَفتِه إلى ما وراء ذلك من أسرارِ الحِكمةِ.

الأسلوبيَّةِ في أبعادِها التَّركيبيَّةِ والتَّصويريَّةِ والدَّلاليَّةِ في سِياقاتِها، وإبرازِ أَثرِ السِّياقِ والمَقاصِدِ وعَلاقاتِ الأَساليبِ بعضِها ببعَضٍ(١)

فهو عَقلٌ كَلِفٌ بتأويلِ التَّصريفِ البيانيِّ للكَلِمِ والكَلامِ في سِياقِهِ، وهو ما يُعرَفُ بالمتشابِه «اللَّفظيِّ» و«النَّظميِّ» فكما أنَّ القُرآنَ الكريمَ ليسَ فيه تكرارٌ تطابُقيٌّ لَفظًا ومعنًى ودَلالةً، لمَا لأَثرِ السِّياقِ والقَصدِ مِن أَثرٍ بالِغٍ في ما تَحمِله الكَلِمةُ والكلامُ من المعاني المُتآخِيَةِ والمُتناغِيَةِ مع السِّياقِ والقَصدِ، فإنَّ العَقلَ البلاغيَّ لا يَذهبُ إلى القَولِ بالتَّفنُّنِ الأَجرَدِ الذي جُلُّ أو كُلُّ أَثَرِه مُتمَثِّلٌ في الاستِرواحِ النَّفسيِّ ودَفعِ السَّآمَةِ عنِ النَّفسِ المُستقبِلَةِ، من أنَّ النَّفسَ الإنسانيَّةِ فُطِرَت على الرَّغبةِ في تَجدُّدِ ما تُعطَى، وعلى الرَّغبةِ عن ما هو مُتناسِخٌ، وإن عَظُمَ في نفسِه.

التَّفنُّنُ الأَجردُ عن حَملِ معنًى جديدٍ لا وجودَ له في البَيانِ القُرآنيِّ. ذلك يقينٌ قائِمٌ في العَقلِ البلاغيِّ، فإذا

---

(١) ينظر: «دلائل الإعجاز»: ٨٧، فقرة: ٨٠.

رأيتَ شيئًا مِن القَولِ بالتَّفنُّنِ العَقيمِ الأَجرَدِ عن حَملِ معنًى جديدٍ في سِفرٍ من أَسفارِ أهلِ العِلمِ، فقائِلُ ذلك قد وَهَنَ عَقلُه البلاغيُّ في هذا المَقامِ.

وشَغَفُ العَقلِ البلاغيِّ بتبصُّرِ دقائِقِ الفروقِ الأُسلوبيَّةِ في سِياقِها مَبعثُه الحِرصُ على تَبيينِ ما في هذه الفُروقِ من مَعانٍ تَفسَحُ فُسطاطَ حَركَةِ المُسلِمِ في استِعمارِه الأَرضَ، ذلكَ أنَّ تَنوُّعَ المَعاني وتَعدُّدَها وتَجدُّدَ استدراكِها بتجدُّدِ حَركَةِ الاستبصارِ والتَّجدُّدُ في التَّدبُّرِ إنَّما يُعبِّدُ طَريقَ العَبدِ إلى ربِّه سبحانه وتعالى، فكُلَّما كَشفَ العَقلُ البَلاغيُّ «الاستنباطيُّ» عن مَعنًى من مَعاني الهُدى مِن خِلالِ إحسانِه التَّبصُّرَ والتَّدَبُّرَ لما عليه بيانُ الوحي هو بالضَّرورةِ يَطرحُ بينَ يدَي المُسلمِ مَسلَكًا أَوسَعَ يسلُكُ فيه إلى مَرضاةِ ربِّه جَلَّ جلالُه، وهذا مِن بابِ «التَّيسيرِ» الذي أَمَرَ به سيِّدُنا رَسولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم فيما رواهُ الشَّيخانِ[١] مِن حَديثِ أَنسٍ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال:

---

(١) «صحيح البخاريِّ»: (٦٩) و«صحيح مسلم»: (١٧٣٢).

«يسِّروا ولا تُعسِّروا، وبَشِّروا ولا تُنفِّروا» وكانَ من فِقهِ البُخاريِّ أن جَعلَه في كتابِ «العِلم» وكتاب «الأدب» وجعلَه مسلمٌ في كتابِ «الجِهادِ والسير» ولكلٍّ جَهةُ نَظرٍ مِنها، فأَبصَرَ عَلاقَةَ البيانِ النَّبويِّ بالكِتابِ الذي صَنَّفَه فيه، وعَلاقَتَه بحاجَةِ المسلمينَ في كُلٍّ لهذا الهَدي النَّبويِّ، وهو ضَربٌ من التَّأويلِ لَطيفٌ طَريفٌ(١)

* * *

تِلكَ بَعضُ خَصائِصِ العَقلِ البلاغيِّ ومَناقِبِه، ولا سيَّما العَقلُ التَّأويليُّ للبَيانِ القُرآنيِّ، وهي لا تَجتمِعُ في كُلِّ عَقلٍ،

---

(١) يُمثِّلُ تصنيفُ الأحاديثِ في «الصحيحين» عملًا من أعمالِ العقلِ البلاغيِّ، ذلكَ أنَّ تصنيفَ الشَّيخينِ للأحاديثِ في الكتبِ والأبوابِ في «صَحيحيهما» إنَّما هو نتاجُ نظرٍ في محمولِ الحديثِ النَّبويِّ من معاني الهدى، وفي ما سيقَ له البيانُ، وكلما اتَّسعت الرُّؤيةُ كان وضعُ الحديث في أكثر من فصل، وكتاب، فالعقلُ البلاغيُّ الفهميّ هو الذي يستبصر ما هو مكنوزٌ في أغوارِ البيانِ، وذلك ما تراه في صَنيعِ الشَّيخينِ في «صَحيحيهما» حاضرًا زاهرًا.

ولكنَّ مَجموعَها قائِمٌ في مَجموعِهِ، فثَمَّ عَقلٌ هو أَعنى ببعضٍ دونَ بعضٍ، ولكنَّه في مَجموعِه لا يَفوتُه شَيءٌ منها ونحن بصَدَدِ القَولِ في مَناقِبِ العَقلِ البلاغيِّ في مَجموعِهِ لا عِندَ واحِدٍ مِن أَهلِه، فلا يَحتجُّ أَحدٌ عليَّ بحالِ عَقلٍ عند عالمٍ ما، فما أنتَ غيرُ مُبصرِه عند هذا تُبصرُه عند آخَرٍ. . .

وهذه الخصائصُ «المناقب» إنَّما تحقَّقت لهذا العَقلِ من التزامِهِ بالضَّوابِطِ العَواصِمِ من القواصِمِ التي يأخُذُ بها في حَركتِه في البيانِ تأويلًا، وهي ضوابِطُ مُحكَّمةٌ قد عَرَضْتُ لها في بَحثٍ سابِقٍ، ممَّا حَمَلني هنا على الرَّغبةِ عن القَولِ فيها ولو على نَسَقِ الإيجازِ. فلكَ أن ترجِعَ إليها في موطِنِها الذي ذُكِرت فيه[١].

*****

(١) تُنظَرُ هذه الضَّوابِطُ في بَحثي المنشور في كتابِ بحوث «ندوة البلاغة العربية: سؤال الهوية وآفاق المنهج». المنعقِدَةِ في جامِعة أمِّ القرى. كليَّةِ اللغة العَربيَّةِ. بمكَّةَ المكرَّمةِ، بعنوان: «التفكير البلاغي في بيان الوحي: منهج إلى تحقيق الهوية المسلمة في الفهم عن اللَّه تعالى»: ٦٣ - ١٤٩.

الفصل الرابع

مراجعاتٌ في شأنِ العَقلِ البلاغيِّ

ما مَضى كانَ بيانًا لخصائصِ العقلِ البلاغيِّ، في الصُّورةِ الأَمثلِ على ما أَذهبُ إليه من واقِعِ النَّظرِ في فِعلِه التَّأويليِّ، ولا سيَّما فيما قبلَ مدرسةِ «المفتاح».

وما مَضى ليسَ نعتًا للعقلِ البلاغيِّ في كلِّ أَطوارِه وأَحوالِه بل هو في أَطوارِه الباكِرَةِ، قَبلَ حِقبةِ تنظيمِ الموروثِ وترتيبِ مَسائِلِه التي قامَ له أبو يعقوبَ السَّكاكيُّ (ت. ٦٢٦هـ) في كتابِه: «مفتاح العلوم» الذي رأَى أنَّ تنسيقَ قضايا الموروثِ ومسائِلِه هو فريضةُ الوقتِ عونًا على حُسنِ تلقِّيه. ومِن هنا تأتي قيمةُ الرَّجلِ ومَن طَلَبَ في كتابِه غيرَ ما قامَ له، فقد ظَلَمَ.

قد أدَّى «أبو يعقوبَ» ما عليه، وعلينا أن نتحلَّى بالعَدلِ في موقِفِنا من السَّكاكيِّ ومِفتاحِه.

وأَهلُ البَصَرِ المُستقيمِ عَلِموا تلكَ الحقيقةَ، وما أَعلنَ عنه عُنوانُ الكِتابِ، فنصُّوا على أنَّ السَّكاكيَّ قد قامَ بفريضةِ الوقتِ، وأنَّ ما صَنَعه كانَ فيه من النَّفعِ للدَّرسِ البلاغيِّ، ولا سيَّما في طَورِ التَّنشئَةِ والتَّأسيسِ والبِناءِ للعَقلِ البلاغيِّ.

وإذا ما كانَ أبو يعقوبَ قد وفَى بفريضةِ الوقتِ فإنَّ على العَقلِ البلاغيِّ بعد فراغِهِ من فريضَتِه أن يَعمَدَ أصحابُ هذا العَقلِ مِن بَعدِه إلى فريضةِ وقتِهم: الاستيلادُ من الموروثِ واستعمارِه بعد ترتيبِه وتنسيقِه من «السَّكاكيِّ» ليُخرِجوا منه ما لم يكُن من قَبلُ، فَجِذرُ «التَّجديدِ» هو استخراجُ ما لم يكُن ممَّا كانَ. غيرَ أنَّ العَقلَ البلاغيَّ لدى أبناءِ مَدرسةِ «المفتاحِ» وحَفَدتِها، عَمَدوا إلى الحَركةِ الأُفقيَّةِ، والاشتغالِ بشرحِ ما أَنتَجه «السكاكيُّ» فنشَأت حَركَةُ «الشَّرحِ» والتَّعليقِ وغيرُ ذلك.

وهي لا رَيبَ تحمِلُ شيئًا نافعًا له عَلاقةٌ بالعَقلِ البَلاغيِّ، بَيدَ أنَّ فيه كثيرًا ممَّا ليسَ من العَقلِ البلاغيِّ العربيِّ.

ورأسُ ما يُمكِنُ أن يُستفادَ من أَسفارِ الشُّروحِ والحواشي ما يُمكِنُ أن أُسمِّيَه «الرِّياضةَ العَقليَّةَ» فما قامَ في أَسفارِ الشَّرحِ والتَّحشيَةِ . . . ونحوِهما ذو نَفعٍ بالغٍ في تَحقيقِ هذه الرِّياضةِ العَقليَّةِ، فالعَقلُ الذي يَمكُثُ في حَوزَةِ هذه الممارساتِ الشَّارِحةِ والمُحشِّيَةِ، سَيملِكُ قُدرةً فَتيَّةً على النَّظرِ والمفاتشةِ. والتَّعقيبُ والتَّعليقُ والمُطاردَةُ للأوابِدِ والشَّوارِدِ، وهي مَهاراتٌ مُهمَّةٌ لكُلِّ عقلٍ، وليسَ للعَقلِ البلاغيِّ وَحدَه.

مَناطُ المؤاخَذةِ في صَنعةِ الشُّروحِ والحواشي أنَّها خَلطَت ما به الرِّياضةُ العقليَّةُ بالفِعلِ التَّأويليِّ للعَقلِ البلاغيِّ، وغَلَبَ ذلك على تلكَ الكُتبِ الشَّارحةِ والمُحشِّيةِ حتى ظَنَّ أنَّ هذا فريضَةُ العَقلِ البلاغيِّ العَربيِّ العِلميِّ وما هو بذلك.

هذه «الرِّياضةُ العقليَّةُ» يُمكِنُ أن تمارِسَ خارجَ الفِعلِ التَّأويليِّ لبلاغَةِ البَيانِ، ولا سيَّما خارجُ بيانِ الوحي. لأنَّ مُمارستَها في ذلك الفِعلِ يوهِنُ من فاعِليَّتِه، ويَجعلُه فِعلًا

عَقليًّا أَجرَدَ، وهذا ما لا يتواءَمُ مع حَقيقةِ فِعلِ العَقلِ البلاغيِّ في البيانِ.

كانَ حريٌّ ألا يُخلَطَ هذا التَّوَرُّكُ العَقليُّ الذي مارَسَه أَشياخُ مَدرسةِ «شروحِ المِفتاحِ» على نحوِ ما تراه في المُناظَرَةِ التي جَرَت بينَ عَلَمينِ من أَعلامِ الفِكرِ البلاغيِّ: سعد الدِّين التَّفتازاني (ت. ٧٩١هـ) والسيد الشريف الجُرجاني (ت. ٨١٦هـ) في ما يُعرَفُ باجتماعِ التَّمثيليَّةِ والتَّبعيَّةِ، فمِثلُ هذه المُناظرةِ قد غَلَبَ عليها التَّوَرُّكُ العَقليُّ، ولا سيَّما من قِبَلِ السَّيِّد الشَّريفِ على الفِعلِ التَّأويليِّ للعَقلِ البلاغيِّ.

وما نراه في هذه الشُّروحِ والحَواشي مِن تَتَبُّعِ منهجِ الماتِنِ أو الشَّارحِ في الإِبانةِ عن معناه، فهذا يُنظَرُ إليه على أنَّه من بابِ «نقدِ العِبارَةِ» المُعبِّرُ بها الماتِنُ أو الشَّارحُ، وهو نَقدٌ عِمادُه التَّدقيقُ اللُّغويُّ، ومُستويات الدَّلالةِ.

فمِثلُ هذا يَمنحُ العَقلَ قُدرةً على البَصَرِ بمواقِعِ الكَلِماتِ، واقتضاءِ المقامِ تحريرَ العِبارةِ، واصطفاءِ المستوى الدَّلاليِّ لها.

ومَن استجمَعَ ما جاءَ به شُراح «المفتاح» و«التَّلخيص» وما كُتِبَ من حَواشٍ عليهِما من نَقدِ العِبارَةِ التي عبَّر بها «السكاكي» أو «الخطيب» لرأىٍ فَيضًا من دِقَّةِ التَّفرُّسِ والتَّفتيشِ في العِبارَةِ، ودَلالاتِ الكَلِمِ والكَلامِ يَعلو ما يرجِعُ إلى القضيَّةِ البلاغيَّةِ التي كانَ النَّظَرُ فيها، فما أنتَ تُحصِّلُه من التَّدقيقِ اللُّغويِّ في كلامِهم في الاستعارَةِ المَكنيَّةِ والتَّخييليَّةِ مَثلًا من التَّدقيقِ اللُّغويِّ تجِده أَكبرَ وأَفضلَ ممَّا تُحصِّلُه من كَلامِهم فيها فيما يتعلَّقُ بالقضيَّةِ البلاغيَّةِ نفسِها: الاستعارةِ المَكنيَّةِ والتَّخييليَّةِ.

وإذا ما كانَ هذا في حِقبٍ مَضَت في ما بينَ القَرنِ السَّابعِ والرَّابعَ عَشَرَ، فإنَّه ليسَ ذلك من فَريضةِ الوقتِ في ما بعد ذلك، فغيرُ قليلٍ من الدِّراساتِ العَلميَّةِ في معاهِدِنا وجامعاتِنا قد تخلَّى عن بعضٍ من خصائِصِه وضَوابِطِه، واشتغلَ بما لا يَليقُ به أن يستحضرَه فِعلا تأويليًّا في البيانِ القُرآنيِّ.

مِن هُنا رأيتُ من حَقِّ هذا العَقلِ البلاغيِّ وأَهلِه في عَصرِنا أن نُمارِسَ شيئًا من نَقدِه

والميثاقُ الأخلاقيُّ لفِعلِ «النَّقدِ» أنَّه لا يكونُ إلا بمَثابَةِ مِرآةٍ تُري النَّاظِرَ فيها ما فيه مِن مَناقِبَ وما يَعتريه مِن مَثالِبَ يَحسُنُ التَّطَهُّرُ منها.

ممَّا قد يؤاخِذُ به العَقلُ البلاغيُّ الشَّارحَ أنَّه لا يُعنى بالنَّظَرِ في السِّياقِ الكُليِّ للبيانِ، فهو إلى النَّظرةِ الجُزئيَّةِ أقربُ منه إلى النَّظرةِ الجمعيَّةِ، في هذه النَّظرَةِ الجُزئيَّةِ لا يتبصَّرُ العقلُ منها مَسارَ المعنى وحَرَكَتَه إلى غايتِه، فهو أَشبهُ بمَن يَنظُرُ في خصائِصِ المرءِ خارجَ سِياقِه القَبَليِّ والاجتماعيِّ والزمانيِّ والمكانيِّ، فمِثلُ هذه النَّظرةِ لا تُدركُ حقيقتَه وخصائصَه الجمعيَّةَ والفرديَّةَ، فلا تكونُ نتائِجُها مَوضِعَ ثِقةٍ واعتدادٍ.

هذا وإن سلِّمَ في بعضِ المواطِنِ فإنَّه لا يَعني أنَّه لازِمَةٌ من لَوزِامِ هذا العَقلِ، وإذا ما بدا في بَعضِ أَسفارِ العَقلِ البلاغِيِّ، ولا سيَّما عندَ المتأخِّرينَ، اجتزاءُ جملةٍ أو بيتٍ أو شَطرَةٍ من سِياقِها، فما هذا إلا اجتزاءٌ في الذِّكرِ لا في الحُضورِ القَلبيِّ، فالعَقلُ البلاغيُّ في تَبصُّرِه وتَدبُّرِه

مُستَحضِرٌ سِباقَ ما يَتدبَّرُ ولِحاقَه وسِياقَه، وليسَ الحامِلُه على هذا الاجتزاءِ في الذِّكرِ الذَّهابَ إلى أنَّه خارجُ سياقِه كَفيلٌ بأن يؤتيَ كلَّ مكنونِه، فذلك لا يذهَبُ إليه مَن له أَدنى مَعرفَةٍ بحالِ الإبانةِ، إنَّما الحاملُه على هذا الاجتزاءِ في الذِّكر هو حالُ المُتلقِّينَ، فالشَّأنُ في مَن يتلقَّى نِتاجَ هذا العَقلِ البلاغيِّ أنَّ سياقاتِ «بيان الوحي» قرآنًا وسنَّةً، وسِياقاتِ القَولِ الشِّعريِّ حاضرَةٌ في قَلبِه، فإذا ذُكِرَ في بابِ أُسلوبِ الاستفهامِ مَثلًا قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦] فهو مُستحضِرٌ في قَلبِه سِباقَها ولِحاقَها وسياقَ سورةِ التَّكويرِ جميعِها، ولا يَرى فَريضةَ أن يَذكُرَ هذا السِّياقَ لِسانًا ؛ لأنَّ ما حَضَرَ في الجَنانِ لم يكُن لحُضورِه في اللِّسانِ ما يَلزَمُ إلَّا لأَمرٍ مِن حالِ البَيانِ أو المَقامِ أو المُتلقِّي.

فإذا وجِدَ مِن المُتلقِّينَ مَن لا يَملِكُ مَهارَةَ استحضارِ السِّياقاتِ في قَلبِه، فإنَّ التَّبِعةَ عليه، وفريضةٌ عليه أن يؤهِّلَ نفسَه لمِثل ذلك، وإلا كان متردِّيًا في المعرَّةِ.

وإذا ما وجِدَ مَن يُمارسُ القِراءَةَ التَّجزيئيَّةِ في تأويله فبمقدارِ تخلِّيهِ عنِ القِراءَةِ الشُّموليَّةِ للسِّياقِ يكونُ افتقادُه للاستحقاقِ أن يُحلَّى بأنَّه عَقلٌ بلاغيٌّ، لأنَّه نَقصٌ في فريضةٍ وفي أَمرٍ مؤسِّسٍ للعَقلِ البلاغيِّ.

وجمهرةُ النُّقصانِ والعَوارِ فيما تراهُ من تأويلاتٍ خِداجٍ أو مَواتٍ لا تَفعلُ في النَّفسِ إنَّما مردُّه إلى اجتزاءِ الآيةِ من سِباقِها ولِحاقِها وسِياقِها.

❋ ❋ ❋

مِن الذي هو مُسلَّمٌ أنَّه ليسَ أَنفعُ لنظريَّةٍ أو رؤيةٍ نظريَّةٍ أو ما شاكَلَ ذلك مِن أن تقامَ في سِياقِ التَّطبيقِ والتَّجريبِ، فكلُّ عِلمٍ نَظريٍّ لم يُختبَر في الواقِعِ الذي يَنتمي إليه هو إلى الجُمودِ أَقربُ إن لم يكُن إلى المَواتِ أَسرَعُ، ومِن ثَمَّ كانَ الأَعلى الاكتفاءُ أوَّلًا بما كانَ من «السَّكاكيِّ» مِن جَمعٍ وتصنيفٍ للموروثِ البلاغيِّ قَبلَه. هذا الكتابُ في هذا البابِ كافٍ بل مُغنٍ عَن كلِّ ما جاءَ بعدَه.

لو أنَّكَ أَقمتَ مُوازَنةً بينَ ما كانَ من كِتابِ «تلخيصِ

المِفتاحِ» للخَطيبِ وما كانَ من كتابِ «الفوائِدِ الغِياثيَّةِ» للإيجي؛ فيما يرجِعُ إلى عِلمِ البلاغَةِ: قضايا ومسائِلُ ومذاهِبُ وآراءٌ تتعلَّقُ بطبيعةِ هذا العِلمِ ما رأيتَ مُفارَقَةً ذاتَ قِيمةٍ في عِلمِ البَلاغَةِ العَربيِّ ورِسالَتِه، ولما تعدَّت المُفارَقاتِ مَجالَ التَّدقيقِ اللَّفظيِّ، حُسنَ التَّصنيفِ والتَّرتيبِ والاختصارِ، وكلُّ هذا لا أَثَرَ ذا قِيمةٍ له في رِسالةِ عِلمِ البَلاغَةِ العَربيِّ. لن يُضيرَ طالبَ العِلمِ أن لا يقرأَ كتابَ «الفوائِدِ الغياثيَّةِ» للإيجي إذا ما قرَأَ كِتابَ «التَّلخيصَ» للخَطيبِ.

لستُ مُنكِرًا أنَّ الطَّالبَ الذي لا يتبصَّرُ كَثيرًا مِن الشُّروحِ والحواشِي لما كُتِبَ على «المِفتاحِ» سيَفقِدُ لا مَحالَةَ مَهاراتٍ وقُدُراتٍ غيرَ قليلةٍ تتعلَّقُ برياضَةِ عَقلِهِ وقُدرتِهِ على التَّدقيقِ والمَحاجَّةِ والبَصرِ بحَرَكَةِ عَقلِ الآخَرِ على إطلاقِهِ دونَ تقيُّدٍ بِعلمٍ من العلومِ، غيرَ أنَّ ما سيفقِدُه مِن فوائِدَ ترجِعُ إلى العَقلِ البلاغيِّ مُؤَوِّلا البيان، ولا سيَّما بيانُ الوحي لن يكونَ كثيرًا أو ذا قِيمةٍ فاعِلَةٍ، فأنا لا أَذهبُ

إلى الاستغناءِ كُليَّةً عن الشُّروحِ والحواشي والتَّقاريرِ التي كُتبَت على مِفتاحِ العُلومِ، بل أَدعو إلى الأَخذِ منها ولكن هذا لن يكونَ في عِلمِ البلاغَةِ العربيِّ خاصَّةً.

وإذا ما كنتَ لن تجِدَ فَرقًا جوهريًّا بين «تلخيص المفتاح» للخَطيبِ و«الفوائد» للإيجي؛ في ما يتعلَّقُ برسالةِ عِلمِ البلاغَةِ، وإن وَجدتَه في حُسنِ التَّنسيقِ وجلاءِ العِبارةِ ويُسرِها ممثَّلةً في «تلخيصِ الخطيبِ» فإنَّك تَجِدُ هذا الفَرقَ المتعلِّقَ بفعلِ العقلِ البلاغيِّ تأويلًا وتدبُّرًا وتذوقًا، قائِمًا فيما بين تُراثِ ابنِ أبي الإصبعِ وابنِ الأثيرِ فيما تركاه لنا في عِلمِ البلاغَةِ.

لا يُغنيكَ درسُكَ «المثلَ السَّائِرَ» عن أن تَدرُسَ كتابَ «تحرير التحبير» وكتابَ «بديع القرآن» لابن أبي الإصبعِ، فليسَ أيٌّ مِن الرَّجُلينِ بالمُغني عن الآخَرِ.

وقيمةُ الأشياءِ بمقدارِ ما يُمكِنُ أن لا يُغني غَيرُها عنها في ما كانت له. فمَن أَغنى عنِّي فقد أَبطلَ وجوديَ فيما قُمتُ فيه. ذلك عِيارٌ لا يُخطئُ فيما أَذهبُ إليه. فليسَ

المُهمُّ أن تقولَ وأن تكتبَ، بلِ المُهمُّ أن يكونَ ما تقولُ لا يُستغنى عنه بما قَبَله.

ولو أنَّكَ نظَرتَ في غيرِ قليلٍ مما يُنشَرُ بينَ يدَي الطُّلابِ اليومَ في بابٍ ما مِن أَبوابِ علمِ البلاغَةِ، لرأيتَه مُتناسِخًا، تُغنيكَ قِراءَةُ واحِدٍ عن سائِرِ تلكَ الكُتبِ مَنهجًا ومتنِ عِلمٍ وأُسلوبِ تحليلٍ، وشواهدَ وأمثلةٍ. هذا الاجترارُ هو واحدٌ مِن ثلاثةِ أدواءٍ هي العوائِقُ بل إلهاماتُ البناءِ العقليِّ والمعرفيِّ في معاهِدِنا وجامعاتِنا: التَّلقينُ والتَّقليدُ والاجترارُ. هذا الثَّالوثُ المُبيرُ آخِذٌ بخناقِ الحركَةِ العِلميَّةِ عِندنا وكأنَّهم بلسانِ حالِهم يتغنَّونَ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

* * *

وممَّا لا يُستحمَدُ من بعضِ أولي العَقلِ البَلاغيِّ أنَّهم أَفرَغوا جُهدَهم في شَطرٍ من شَطري عِلمِ البلاغةِ العربيِّ، ولم يَمنحوا الشَّطرَ الآخَرَ نصيبَه من عِنايتِهم.

عِلمُ البلاغَةِ العَربيِّ شَريجانِ:

الأوَّلُ: علم بلاغَةِ التَّصويرِ، والآخَرُ: علمُ بلاغةِ المحاجَّةِ والاستدلالِ والإِقناعِ.

صَحيحٌ أنَّ الأوَّلَ «التصويرَ» حاضرٌ في الآخَرِ «المحاجَّةِ والاستدلالِ والإقناعِ» وأنَّ هذا الآخَرَ لا يُمكِنُ تحقيقُه إلَّا من خِلالِ بلاغةِ التَّصويرِ، إلَّا أنَّ هذا لا يُسوِّغُ ضرورةَ الاعتناءِ بما هو خاصٌّ ببلاغةِ المَحاجَّةِ والاستدلالِ والإقناعِ.

بلاغةُ بيانِ الوحي حاضِرٌ فيها مِنهاجُ المحاجَّةِ والاستدلالِ والإقناعِ، ولها طرائقُ استوجبَتْها مقاصدُ المحاجَّةِ والاستدلالِ والإقناعِ. ومَجالاتُ المحاجَّةِ الاستدلالِ والإقناعِ، ومغازِيه.

وإذا ما كانَ السكَّاكي قد فَتحَ بابًا للاستدلالِ بعد فَراغِه مِن القَولِ في قضايا عِلمِ المعاني وعِلمِ البَيانِ ومَسائِلِهما، وما يتعلَّقُ بذلكَ من المُحسِّناتِ، قائلًا: «وإذ قد تحقَّقتَ أنَّ عِلمَ المعاني والبيانِ هو مَعرفةُ خواصِّ تراكيبِ الكلامِ،

ومعرفةُ صياغاتِ المعاني؛ ليتوصَّلَ بها على تَوفيةِ مقاماتِ الكلامِ حقَّها، بحسَبِ ما يَفي به قُوَّةُ ذكائِكَ، وعندك علم أن مقامَ الاستدلالِ بالنِّسبةِ إلى سائِرِ مَقاماتِ الكلامِ جزءٌ واحدٌ من جملتِها، وشُعبةٌ فردةٌ من دَوحتِها، علِمتَ أنَّ تتبُّعَ تراكيبِ الكَلامِ الاستدلاليِّ ومَعرفةَ خواصِّها ممَّا يلزمُ صاحبَ علمِ المعاني والبيانِ، وحين انتصَبنا لإفادتِه لَزِمَنا أن لا نَضِنَّ بشيءٍ هو من جملتِه وأن نستمدَّ اللَّهَ التَّوفيقَ في تكمِلَتِه»[1] فإنَّ الذي أَدعو إليه أن نستخلِصَ خواصَّ تراكيبِ الكَلامِ الاستدلاليِّ من واقِعِ بيانِ الوحي قرآنًا وسنَّةً، دونَ انطلاقٍ من ما أُثِرَ من مقالاتِ المناطقَةِ، فإنَّ للعربِ مَنطقَهم الفِطريَّ، وهو المَنطقُ الذي اتَّخذَه القُرآنُ مِنهاجَ محاجَّةٍ واستدلالٍ وإقناعٍ، فالعربيُّ زمنُ الوحي حِينَ سمِعَ قولَ اللَّهِ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] عَلِمَ أنَّ هذا مِنهاجُ استدلالٍ على أنَّ القرآنَ كَلِمةُ اللَّهِ تعالى،

---

(١) «مفتاح العلوم» للسكاكي: ٢٠٤.

وليس استدلالًا على أنَّ القرآنَ ليسَ فيه اختلافٌ، هو يعلمُ أنَّ عصمةَ القرآنِ من الاختلافِ مقدِّمَةٌ مُسلَّمةٌ من واقِعِ القُرآنِ لا يحتاجُ إلى الاستدلالِ عليها من خارجِ واقِعِ القرآنِ نفسِه، فهو يَستمِدُّ منها أنَّ القرآنَ من عندِ اللَّهِ، وليسَ نتيجةً تُستمدُّ من أنَّ القُرآنَ من عندِ اللَّهِ تعالى. فالآيةُ سَلَكَت في المَحاجَّةِ والاستدلالِ والإِقناعِ المَسلكَ الأَمكنَ، لم يَستدلَّ على أنَّه لا اختلافَ فيه بأنَّه مِن عندِ اللَّهِ تعالى لأنَّ كونَه من عندِ اللَّهِ لايصلُحُ مقدِّمةً موضوعًا أومحمولًا كما يقول المناطقةُ لأنَّه غيرُ مُسلَّمٍ إلا ممَّا يؤمِنُ به، والمشركونَ يُسلِّمونَ أنَّه لا اختلافَ فيه ولم يقولوا قط إنَّه متناقِضٌ، قالوا سِحرٌ وشِعرٌ، ولم يقولوا فيه الاختلافُ قليلٌ، ومن ثَمَّ استُمِدَّ من هذا المُسَلَّمِ به نتيجةٌ: إنَّه مِن عندِ اللَّهِ جلَّ جلالُه ؛ لأنَّه لو كانَ من عندِ غيرِه سبحانه وتعالى لوجِدَ فيه اختلافٌ، فما وجَدتم.

فعدمُ الاختلافِ آيةٌ قطعيَّةُ الدَّلالةِ أنَّه من عندِ اللَّهِ تعالى، وهذا النَّهجُ يُعرَفُ عندَ أهلِ الحِجاجِ بالاستدلالِ

بالعَكسِ أو قِياسِ العكسِ «إثباتُ نقيضِ حُكمِ الأَصلِ في الفرعِ لثُبوتِ ضِدِّ عِلَّتِه فيه»[١].

***

وممَّا لم يوفِّه العَقلُ البلاغيُّ حقَّه وجهٌ من وجوهِ إعجازِه البَلاغيِّ هو الأحقُّ في زَمانِنا أن يكونَ محلَّ الاعتناءِ و نتحدى به كلَّ عَقلٍ وبيانٍ عربيٍّ أو أعجميٍّ:

إنَّه وجهُ إعجازِ بلاغةِ أَنسابِ معانيه، وتصاعُدِها، وأنَّه النَّصُّ الذي يتحقَّقُ فيه التَّماسُكُ النَّصيُّ على أَجلِّ ما يكونُ وأَعظمِه، وأنَّ بلاغةَ النَّصِّ لا توجَدُ في غيرِه كمِثْلِ ما توجَدُ فيه.

إنَّ الاعتناءَ ببلاغةِ التَّناسُبِ والتَّماسُكِ النَّصيِّ، ونُموِّ المعنى وتصاعُدِه وإِحكامِ حركتِه بحيثُ لا يُمكِنُ تقديمُ حَرفٍ فَضلًا عن كَلمةٍ أو آيةٍ أومَعقدٍ أوسورةٍ عمَّا هو عليه

---

(١) ينظر «قياس العكس» في: كتاب «القياس الشرعي» طُبع ذيلا لكتاب «المعتمد في أصول الفقه»: ٢/ ٤٤٣، وكتاب: «البحر المحيط في أصول الفقه»: ٤/ ٤١، وكتاب: «إعلام الموقعين عن رب العالمين»: ٢/ ٢٨٣.

في التَّنزيلِ هو الآيةُ العُظمى على أنَّه كتابُ اللَّهِ تعالى، على الرَّغمِ من أنَّ مِنهاجَ تنزيلِه منُجَّمًا أَدعى إلى أنَّ يُبتليَ بالتَّفكُّكِ، ولكنَّه كتابٌ عزيزٌ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

التَّحدِّي ببلاغَةِ تناسُبِه وتماسُكِه النَّصيِّ ونُموِّ معانيه وتَصاعدِها هو الوجهُ الذي يَبقى وإن تُرجِمت معانيه ترجمةً أَمينةً قويمةً إلى أيِّ لُغةٍ من لُغاتِ البشر، فترجمةُ معانيه لا تؤثِّر على إعجازِ بلاغةِ تَناسُبِها وتَماسُكِها ونُموِّها وتَصاعُدِها، وإِحكامِ علاقَتِها. فالاعتناءُ ببيانِ إعجازِ بلاغةِ التَّصويرِ في القرآنِ في ما مضى لا يتحقَّقُ إلَّا من خلالِ بيانِه بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، وهذا لا يُطيقُه إلَّا من يَعرِفُ العربيَّةَ عِرفانًا فَتيًّا أمَّا الأعاجِمُ، فلا يُمكنُ تحدِّيهم بذلك، والقرآنُ بلاغتُه مُعجزةٌ للعالمينَ وهو يتحدَّى الثَّقَلينِ جميعًا عَربًا وغيرَ عَربٍ.

هو مُعجِزٌ العَربَ من وَجوهٍ:

من بلاغَةِ التَّصويرِ، ومن بلاغةِ الإقناعِ ومن بلاغة التناسُبِ والتَّماسُكِ النَّصيِّ.

أمَّا غيرُ العربيِّ فلإنَّه يتحدَّاهم ببلاغتِه لا من حيثُ بلاغةُ «التصوير» بل من حيثُ بلاغةُ الاستدلالِ، والإقناعِ والتَّماسُكِ النَّصيِّ والتناسُبِ العليِّ الحكيمِ الذي يُرغِمُ كلَّ النَّاسِ على أنَّهم لا يُمكِنُ أن يأتوا بسورةٍ من مِثلِهِ في هذا الجانِبِ: جانبِ التَّناسُبِ النَّصيِّ.

والنَّصيحةُ لكتابِ اللَّهِ تعالى تَستوجِب استكمالَ ما لم يُستكمَل، لا اجترارَ ما اعتُنيَ به. وهذا يَستوجِبُ أن تُوجَّهَ جهودُ العقلِ البلاغيِّ العربيِّ في القادمِ من المُدارسةِ إلى ما يُبينُ عن جانبِ تحدِّيه ببلاغتِه مَن ليسوا بعربٍ.

الفصلُ الخامسُ

استصلاحُ علمِ البلاغةِ العربيِّ

أَذهبُ إلى أنَّ استصلاحَ علمِ البلاغةِ العربيِّ في الجامعةِ ولا سيَّما جامعةُ الأزهرِ الشريفِ، يقومُ في ثلاثِ مجالاتٍ:

الأول: مجالُ العِلمِ نفسِه.

والثاني: مجالُ التَّأليفِ فيه.

والثالث: مجالُ تعليمِه.

المجال الأول

إصلاحُ علمِ البلاغةِ العربيِّ نفسِه في الجامعةِ

أَسَّستُ القولَ في هذا على خمسِ مُقدِّماتٍ هي عندي حقائقُ:

١- أنَّ البيانَ «الوحي» قرآنًا وسنَّة قائِمٌ بأَمرينِ: تقريرُ الحقِّ ونشرِ الخيرِ، وكلُّ ما فيه راجعٌ إليهما بطريقٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ. فما مِن آيةٍ أو حديثٍ إلَّا ومآلُ المعنى إلى تقريرِ الحقِّ ونُصرتِه أو صناعةِ الخيرِ ونَشرِهِ.

أنَّ علمَ البلاغةِ العربيَّ عِلمٌ قرآنيُّ النَّشأةِ والغايةِ، فهوعلمُ فهمٍ، وليسَ عِلمَ إفهامٍ. الإِفهامُ رسالةُ علمِ الإِنشاءِ الأدبيِّ والعِلميِّ وهو فرعٌ من الدِّراساتِ الأدبيَّةِ والنَّقديَّةِ.

فعِلمُ البلاغةِ العربيُّ لم ينشأ قطُّ لتعليمِ النَّاسِ كيفَ يتكلَّمونَ، ويُفهِمونَ مقاصدَهم الآخرينَ، بل نَشأَ ليتعلَّم الناسُ مهارةَ التَّلَقِّي عن الآخَرينَ بدءًا من مستوى التَّعقُّلِ

إلى مُستوى الفَهمِ، والمجالُ الرَّئيسُ لهذا التَّلقِّي تعَقُّلًا وفهمًا هو بيانُ الوحي.

٢- أنَّ علمَ البلاغةِ العربيَّ إنَّما يعملُ في نِتاجِ الإبداعِ الأدبيِّ وسيلةً إلى غايةٍ أَجَلَّ هي الفهمُ عن اللَّهِ سبحانه وتعالى وعن رسولِهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبِهِ وسلَّم، وبغيرِ حُسنِ فقهِ بيانِ الإبداعِ البَشريِّ ولا سيَّما ما كان قبلَ زمنِ الوحي وفي زَمنِه وما قاربَه زمانًا ومكانًا لا يتأتَّي للعَقلِ البلاغيِّ تحقيقُ غايتِه المنشودةِ.

٣- أنَّ علمَ البلاغةِ العربيَّ ليسَ كَمَثلِه عِلمُ بلاغَةٍ آخرُ، فما يَجري في غيرِه من علومِ البلاغاتِ الأُخَرِ لا يلزمُ جريانُه فيه، نظرًا إلى نَشأتِه وغايتِه. وما يتطلَّبُه من خصوصيَّةٍ في المنهجِ والأَداةِ.

٤- أنَّ إصلاحَ علمِ البلاغةِ العربيِّ وتجديدَه إنَّما يأتي من رافِدَينِ:

الأول: من واقعِ البيانِ المُعجِزِ والبيانِ البديعِ.

والآخر: مِن داخِلِه وليسَ مِن ثَقافاتٍ أُخَرَ.

هذه حقائِقُ عندي، وهي مُنطلَقي في هذا القولِ:

إذا ما نظرتَ في بيانِ الوحي قرآنًا وسنَّةً الذي هو المجالُ الرَّئيسُ للفعلِ البلاغيِّ أَلفَيتَه لا يخرجُ عن مَجالينِ، ومَقصِدٍ واحِدٍ:

المجالان هما:

تقريرُ الحقِّ ونُصرتُه.

صناعةُ الخيرِ ونشرُه.

والمقصِدُ هو تحقيقُ عبوديَّةِ الإنسانِ للَّهِ سبحانه وتعالى بتعميرِ الأرضِ بطاعتِه وَفقَ مرادِه الشَّرعيِّ أمرًا ونهيًّا.

وهذا يجعلُ العقلَ البلاغيَّ في فعلِه التَّأويليِّ للبيانِ القرآنيِّ يُعنى بهذينِ المَجالينِ من جهةٍ، وبتحقيقِ المقصِدِ من أخرى. وهذا يَضبِطُ حركَتَه من حيثُ المجالُ ومن حيثُ الغايةُ.

وهذا يجعلُ علمَ البلاغةِ العربيَّ من حيثُ الفِعلِ التَّأويليِّ ضربين:

الأوَّلُ: علمُ بلاغةِ التَّثقيفِ النَّفسيِّ.

والآخر عِلمُ بلاغةِ الإِقناعِ.

أمَّا عِلمُ بلاغةِ الإقناعِ فمَجالُه الرَّئيسُ ما في البيانِ القُرآنيِّ من تقريرِ الحَقِّ ومُناصَرتِه،

وأمَّا عِلمُ البلاغةِ التَّثقيفيُّ فمجالَه الرَّئيسُ ما في البيانِ القرآنيِّ من صِناعةِ الخيرِ ونشرِه. وهو مرتَّبٌ على الأوَّلِ وظيفيًّا، والأوَّلُ مرتَّبٌ عليه تَعلُّمًا

وهذانِ لا يتفاصلانِ ولا يتجاوَرانِ بل هما مُتمازِجانِ في واقِعِ الإِبانةِ من أنَّ الحَقَّ والخيرَ متمازِجانِ في بيانِ الوحي.

أنتَ ترى في الآيةِ الواحِدةِ ما يُقرِّرُ الحَقَّ وما يهدي إلى صُنعِ الخيرِ، بل ترى في الكَلِمةِ الواحَدةِ في سِياقِها منها ما يُقرِّرُ الحَقَّ ومنها ما يُثقِّفُ النَّفسَ لتصنعَ الخَيرَ وتنشرَه

تبصَّر قولَه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ تجِدِ الفِعلَ «تبَّت» أقامَ الحقَّ وناصرَه بمادَّتِه، وثَقَّفَ النَّفسَ بصيغتِه «الماضي» فلو قيلَ «ستَتبُّ يدُ أبي لهبٍ وسيتِبُّ» لكانَ له وَقعٌ نفسيٌّ آخرُ، لكنَّه لما جاءَ في صِيغةِ «الماضى»

أَقامَ النَّفسَ في سِياقٍ استشعَرَت فيه جلالَ الإلهيَّةِ بمادَّةِ الفِعلِ، وجمالِ الرُّبوبيَّةِ بصيغَةِ الفِعلِ «الماضي».

هذا لا يعني أنَّه ليسَ في مادَّةِ الفِعلِ «تبَّت» من جمالِ الرُّبوبيَّةِ، ولا يعني أنَّه ليسَ في صيغةِ الفِعلِ «تبَّت» مِن جَلالِ الإلهيَّةِ، وإنَّما أنا ناظِرٌ إلى ما هو أَظهرُ في كلٍّ، وليسَ لما هو حاضِرٌ في كلٍّ، فالبَصَرُ بالبيانِ القُرآنيِّ يهدي إلى حُضورِ جلالِ الإلهيَّةِ وجمالِ الرُّبوبيَّةِ في كلِّ جُملةٍ في سِياقِها في القُرآنِ كلِّه، فهُما لا يتفاوتانِ حُضورًا، بل يتفاوتانِ ظُهورًا.

وآيةُ ذلكَ أنّ جلالَ الإلهيَّةِ مَجلاهُ الأمُّ قولُه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وجمالَ الرُّبوبيَّةِ مَجلاه الأمُّ قولُه تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ وهـذانِ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ حاضرانِ في كلِّ جملةٍ في سِياقِها مِن البيانِ القُرآنيِّ، وإن تفاوتا ظُهورًا بحسَبِ السِّياقِ.

فروافِدُ تحقيقِ الأَمرَينِ قد تكونُ في كَلمةٍ أو جُملةٍ، فليسَ في البيانِ القرآنيِّ قِسمٌ للحقِّ وآخرَ للخيرِ.

ومِن مَنهجِ تقريرِ الحَقِّ وصناعةِ الخيرِ يُتولَّدُ الجَمالُ. فالجمالُ إنما هو ثَمرةُ اجتماعِ الحَقِّ والخيرِ وتمازُجِهما، فمنزلتُه منهما مَنزلةُ الثَّمرةِ من الشَّجرةِ، وما الجَمالُ بقَسيمٍ لهما. وإن شِئتَ قلتَ: الجمالُ هو مَجلى الحقِّ والخيرِ في البيانِ القرآنيِّ، فهما: الحقُّ والخيرُ يتجلَّيانِ في مِرآةِ الجَمالِ.

لذا كانَ ممَّا يجِبُ على العَقلِ البلاغيِّ العربيِّ أن يمنحَه مزيدًا من الاعتناءِ ما يَختصُّ بالجانِبِ الحِجاجيِّ في بلاغةِ البيانِ سَواءٌ كان بيانَ إبداعٍ بشريٍّ: شِعرًا أونثرًا، أو بيانَ وحيٍ: قرآنًا وسنَّةً، فهذا الجانبُ من بلاغةِ البيانِ لم يحظَ بما حَظيَ به جانبُ الإبلاغِ، والتَّثقيفِ النَّفسيِّ. فبلاغةُ الحِجاجِ تقومُ على أُصولِ «الاستدلالِ البيانيِّ» وليس «الاستدلالَ البرهانيَّ» الذي هو طِلبةُ العَقلِ المنطقيِّ والفلسفيِّ.

الذين تحدَّثوا عن الاستدلالِ في القرآنِ كانت عنايتُهم ببيانِ «الاستدلالِ البرهانيِّ» أكثرَ من عنايتِهم ببيانِ «الاستدلال البيانيِّ» في بيانِ الوحي.

البلاغةُ الحِجاجيَّةُ ليسَت بلاغةً تعتمِدُ على «الاستدلالِ البرهانيِّ» الذي عِمادُه الأَشكالُ القياسيَّةُ واستخراجُ النَّتيجةِ من المقدِّماتِ ونحو ذلكَ، فهذا ليسَ هو الطَّابعُ العامُّ لـ «الاستدلال» في القُرآنِ.

ومن قَرأَ فقهَ «الاستدلالِ» في كتابِ «الرِّسالةِ» للشَّافعيِّ يُدركُ طبيعةَ «الاستدلالِ البيانيِّ» في الكتابِ والسُّنَّةِ.

«الاستدلالُ البيانيُّ» يُخاطِبُ النَّفسَ والقَلبَ، بينما «الاستدلالُ البرهانيُّ» يخاطِبُ العَقلَ، ولكُلٍّ منهما أَدواتُه الحِجاجيَّةُ، وعُظمُ الأَدواتِ الحِجاجيَّةِ لـ«الإستدلال البياني» تتمثَّلُ في «اللُّغةِ» ومَنهجيَّةِ توظيفِها، بينما الأدواتُ الحجاجيَّةِ في «الاستدلال البرهانيِّ» تتمثَّلُ في عَلاقَةِ الاقتضاءِ والتَّلازُمِ العَقليِّ بينَ مكوِّناتِ المحاجَّةِ.

ومن ثمَّ كانت فاعليَّةُ «الاستدلال البيانيِّ» تتمثَّلُ في الاقتناعِ النَّفسيِّ والقَلبيِّ، الذي يترتَّبُ عليه انبعاثٌ وعَزمٌ، وحضورٌ سلوكيٌّ بينما «الاستدلالُ البرهانيُّ» تتمثَّلُ فاعليَتُه في الاقتناعِ «العقليِّ» وهذا لا يترتَّبُ عليه غالبًا انبعاثٌ وعزمٌ وحضورٌ سلوكيٌّ.

وفي «الاستدلالِ البيانيِّ» يكونُ حالُ المخاطَبِ حاضِرًا، وفاعِلًا في بناءِ هذا «الاستدلالِ» وفي منهجيَّتِه الإقناعيَّةِ، بينما «الاستدلالُ البرهانيُّ» تكونُ حالَ الحُجَّةِ هي الأوفرُ مُراعاةً وحُضورًا. وقد لا يكونُ للمخاطَبِ حضورٌ ومراعاةٌ في بناءِ الاستدلالِ ومنهجيَّةِ إقناعِهِ، ولذلك لا يكونُ «الاستدلالُ البرهانيُّ» مُرتبِطًا بخصوصيَّةِ مَنهجيَّةِ البَيانِ وأدواتِه وسياقاتِه، مثلما تَجِدُ هذا أصلًا في «الاستدلال البيانيِّ».

إنَّ منهجيَّةَ «الاستدلال البرهانيِّ» جاريةٌ في أيِّ لسانٍ، فهيَ غيرُ مرتبطةٍ بنوعِ اللُّغةِ ومنهجِها في الإبانةِ والإفهامِ، بينما «الاستدلالُ البيانيُّ» مرتبِطٌ ارتباطًا رئيسًا مكينًا بطبيعةِ اللُّغةِ ومَنهجيَّتِها في الإبانةِ والإفهامِ.

وليسَ معنى هذا أنَّ «الاستدلالَ البيانيَّ» لا يجتمعُ فيه «استدلالٌ برهانيٌّ» كلا، إنَّما لا يكونُ لـ«الاستدلال البرهانيِّ» مَوقِعُ الإمارةِ والقِيادةِ والمركزيَّةِ، في بناءِ الاستدلالِ، ومِنهاجيتِه في المحاجَّةِ، وفي الأَدواتِ التي تَتَّخِذُ في تحقيقِ رِسالتِه الإقناعيَّةِ للنَّفسِ والقلبِ معًا.

هذا الجانِبُ يحتاجُ العقلُ البلاغيُّ العربيُّ أن يوفِّيَه كثيرًا من حَقِّه الذي ما يزالُ غيرَ مُوفّى في كَثيرٍ من الأسفارِ التي أُنتِجَت وفي كثيرٍ من مُمارساتِه التَّأويليَّةِ للبيانِ البَليغِ على مُستوييه: الإبداعِ والوحي.

ومَن يقرأُ بيانَ الوحي قرآنًا وسنَّةً لا بُدَّ أنَّه سيجِدُ نفسَه أمامَ فَيضٍ من هذه البلاغةِ التي تُنادي عليه بأن يقومَ للوفاءِ ببعضِ حقِّها، وكذلك بيانُ الإبداعِ شعرا ونصًّا، ولو أنَّكَ قرأتَ رسالةَ الإمامِ أبي حنيفةَ النعمان إلى عثمانَ البتِّي لرأيتَ نموذجًا عليًّا من الرَّسائلِ الإخوانيَّةِ المتبادَلةِ بين عالِمينِ تابعيينِ تجمعُ بينَ بلاغةِ التَّصويرِ وبلاغةِ الاستدلالِ والمحاجةِ والإقناعِ ما تعرف به قدر أبي حنيفةَ في هذا البابِ، وهو الذي لا يَعرِفُه كثيرٌ إلا أنَّه إمامٌ في فقهِ الشَّريعةِ، وهو عندي إمامٌ في بلاغَةِ الاستدلالِ والمحاجَّةِ والإقناعِ.

***

وإذا ما قُلنا إنَّ علمَ البلاغةِ ينقسمُ وظيفيًّا قسمينِ: بلاغةُ الإمتاعِ «التَّثقيفُ النَّفسيُّ» وبلاغةُ الإقناعِ «الاستدلالُ البيانيُّ».

فإنَّ علمَ البلاغةِ ينقسِمُ من حيثُ مجالُ النَّظَرِ قسمينِ:
علمُ النَّظمِ وعلمُ التَّناسُبِ النَّصِّي.

علمُ النَّظمِ يجري في القَولِ في بلاغةِ مُكوِّناتِ النَّصِّ الكُليِّ.

وعلمُ التَّناسُبِ يجري في القَولِ في بلاغةِ التَّكوينِ النَّصيِّ الكُليِّ.

كلُ بيانٍ هو من أمرينِ: مُكوِّنٌ وتكوينٌ.

الُمكوِّنُ يبدأُ من الكَلمةِ ويتصاعدُ ليشملَ كلَّ ما كانَ بعضًا من كُلٍّ، في السُّورةِ يتصاعدُ المكوِّنُ من الكلمةِ إلى المَعقدِ «الفَصلِ» وفي القُرآنِ يتصاعدُ المكوِّنُ إلى السُّورةِ بتمامِها.

والتَّكوين: هو منهجيَّةُ بناءِ النَّصِّ الإبداعيِّ: «الخطبة - الرسالة - المقامة - المقالة - الوصية - القصيدة . . .» أو منهجيَّةُ البناءِ الكُليِّ في بيانِ الوحي: «الحديث النبوي أوالقدسي - السورة - القرآن».

أمَّا تقسيمُ المتأخِّرينَ علمَ البلاغةِ ثلاثةَ علومٍ: «المعاني - البيان - البديع» فهو منظورٌ فيه إلى الأساليبِ من حيثُ ما

يُحقِّقُ بُعدَها الوظيفيَّ، أي: من حيثُ ما هو المؤثِّرُ من الأسلوبِ في النَّفسِ المستقبلتِه، فمِن الأساليبِ ما يكونُ المصدرُ الرئيسُ للتأثيرِ هو التَّركيبُ، ومنها ما هو الدَّلالةُ، ومنها ما هو التَّحسينُ «التَّحبيرُ» وهذا لا يعني إبطالَ الآخَرينَ تأثيرًا، بل هما تاليانِ في التَّأثيرِ، فالجِناسُ والسَّجعُ المصدرُ الرَّئيسُ عندهم في تأثيرِهما هو التَّحسينُ الصَّوتيُّ الذي يَقتضيه المعنى ليَخدمَه، والتَّركيبُ والدَّلالةُ أيضًا لهما جانبٌ من التَّأثيرِ. وكذلك الاستعارةُ المصدرُ الرَّئيسُ في التَّأثيرِ هو مستوى الدَّلالةِ، وللتَّركيبِ والتَّحبيرِ أثَرٌ أيضًا، ولكنَّه مساعدٌ أثرَ الدَّلالةِ...

وهذا التَّقسيمُ الذي جَرى عليه المتأخِّرونَ هو تقسيمٌ غيرُ مُحكَمٍ، فالأَقسامُ تتداخَلُ، ولا تتفاصَلُ، فالتَّشبيهُ له وجهٌ من التَّركيبِ والدَّلالةِ والتَّحبيرِ، ولايتأتَّى لهم المفاصَلةُ التَّامَّةُ بينَ تأثيرِ البُعدِ التَّركيبيِّ والدَّلاليِّ والتَّحبيريِّ في أيِّ أسلوبٍ، فطَبيعةُ الإبانةِ تأبى هذه المُفاصَلةِ[١].

---

(١) البُعدُ التَّركيبيُّ للأسلوبِ منظورٌ فيه إلى مَنهجيَّةِ إيجادِ الأسلوبِ =

فلو أنَّا جعلنا علمَ البلاغةِ العربيَّ قسمينِ: قسمَ التَّركيبِ، وقسمَ الدَّلالةِ لكانَ أعلى، وجعلنا أساليبَ «البديعِ: التَّحبيرِ» التي عندَ المتأخِّرينَ يرجِع بعضُها إلى «بديع التَّراكيبِ» وبعضُها إلى «بديعِ الدَّلالةِ» لكانَ عندي أعلى وأَولَى.

علمُ التَّركيبِ يشمَلُ ما يرجِعُ أَصلُ بلاغتِه إلى تركيبِه بدءًا من تركيبِ الكَلمةِ، وانتهاءً بتركيبِ القصيدةِ، وما كانَ من جِنسِها في بابِ الإِبداعِ الأدبيِّ، وبتركيبِ السُّورةِ والقرآنِ في البيانِ القرآنيِّ.

وعلمُ الدَّلالةِ يشمَلُ كلَّ ما يَرجِعُ أصلُ بلاغتِه إلى أنواعِ الدَّلالةِ ومستوياتِها، من حيثُ الظُّهورُ والخفاءُ، والقوَّةُ والضَّعفُ، والإِحكامُ والاحتمالُ، والقُربُ والبُعدُ. . . . سواءٌ على مستوى دَلالةِ الكَلمةِ أو دَلالةِ البيانِ الكُليِّ.

= وخَلقِه، بينما البُعدُ الدَّلاليُّ منظورٌ فيه إلى علاقةِ التَّركيبِ بالمعنى، والبُعدُ التَّحبيريُّ مَنظورٌ فيه إلى أَثَرِ منهجِ التَّركيبِ، وعَلاقَتِه بالدَّلالةِ على المعنى، فالجِهاتُ مختلفةٌ.

أمَّا حصرُه في تفاوتِ دَلالةِ الكلامِ في مستوياتِ الجَلاءِ والخَفاءِ كما عليه البلاغيُّونَ المتأخِّرونَ فذلكَ تضييقُ واسِعٍ.

وما يُعرَفُ بعلمِ «البديعِ» عند المتأخِّرينَ نُرجِعُ بعضَه إلى التَّركيبِ، وبعضَه إلى الدَّلالةِ، فيكونُ في بابِ التَّركيبِ.

بديعُ «التَّركيبِ» يتناولُ أساليبَ المطابَقةِ «مطابقةٌ بين مُفردَينِ أو جُملتينِ أو صورتَينِ أوموقفينِ» والجناسَ، والسَّجعَ، والاحتباكَ، واللَّفَ والنَّشرَ، والجمعَ والتَّقسيمَ، والإِجمالَ والتَّفصيلَ... المزاوجةَ والعكسَ والتَّبديلَ، وبراعةَ الاستهلالِ، وحُسنَ التَّخلُّصِ وحُسنَ الختامِ.

فهذه الأَساليبُ التَّميُّزُ والإِبداعُ قائمٌ في تركيبِها في المَقامِ الأوَّلِ، فذلكَ مناطُ التَّحبيرِ، فهي في أَصلِها تنتمي إلى ما يُعرَفُ بعلمِ «المعاني» عندَ المتأخِّرينَ.

ومن بديعِ «الدَّلالةِ» التَّوريةُ، والاستخدامُ، والمُشاكَلةُ، والإرصادُ، والتَّجريدُ، والمبالغةُ، والمذهبُ الكلاميُّ، وحسنُ التَّعليلِ، وتأكيدُ المدحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ وعكسُه،

وتجاهلُ العارفِ، والقولُ بالموجِبِ، وبراعةُ الاستهلالِ، وحسنُ التَّخلُّصِ وحسنُ الختامِ[١].

الإبداعُ والتَّميُّزُ في أكثرِ هذه الأَساليبِ ليسَ في تركيبِها في المَقامِ الأوَّلِ بل في دَلالةِ تركيبِها على المعنى، فذلك مَناطُ التَّحبيرِ، فهي في أَصلِها يجِبُ أن تنتميَ إلى ما يُعرَفُ بعلمِ «البيانِ» عندَ المتأخِّرينَ، لأنَّها من بابِ مستوياتِ الدَّلالةِ إذا ما اعتبرنا التَّنوّعَ في مستوياتٍ دَلاليَّةٍ فوقَ الجَلاءِ والخَفاءِ، وهو الأَولى عندي، فيكونُ التَّنوّعُ في مستوياتِ الدَّلالةِ إِحكامًا واحتمالًا، وقُربًا وبُعدًا، وقُوّةً وضَعفًا.... من بابِ علمِ البيانِ عندَ المتأخِّرينَ.

***

(١) ذكرتُ هنا أيضًا «براعةَ الاستهلالِ، وحُسنَ التَّخلُّصِ، وحُسنَ الختام» ذِكرًا مقصودًا، وليس تكرارًا، فبعضُ الأساليبِ الحُسنَُ فيها يأتيها مِن الجِهتينِ: التَّركيبِ والدَّلالةِ. ومن ذلكَ براعةُ الاستهلالِ وقرينَيه.

المجالُ الثَّاني

مجالُ التَّأليفِ في علمِ البلاغةِ

ممَّا لا يَخفى أنَّ التَّأليفَ في عِلمِ البلاغةِ العربيِّ مَضى في ثلاثةِ طُرُقٍ:

الأول: مَجالُ التَّأليفِ المستقِلُّ الذي يُنشئُ فيه العالِمُ كتابَه على غيرِ مثالٍ يجري عليه كالذي تراه في كتاب: «البديع» لابن المعتز (ت. ٢٩٦هـ) و«الصناعتين» للعسكري (ت. ٣٩٥هـ) و«سر الفصاحة» لابن سنان (ت. ٤٦٦هـ) وكِتابَي عبد القاهر (ت. ٤٧١هـ) و«المثل السائر» لابن الأثير (ت. ٦٣٧هـ) و«تحرير التَّحبير» و«بديع القرآن» لابن أبي الإصبع (ت. ٦٥٤هـ) و«المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع» لأبي محمدٍ القاسمِ بنِ محمَّدِ بنِ عبدِ العزيزِ السجلماسي (ت. ق ٨هـ).

الثاني: مَجالُ تصنيفِ وتنظيمِ ما أُنجِزَ ممَّا سَبَقَ إنجازُه

في علمِ البلاغةِ، على نحوِ ما صَنَعَ الفَخرُ الرازي (ت. ٦٠٦هـ) في «نهايةالإيجاز»، والسكَّاكي (ت. ٦٢٦هـ) في كتابه «مفتاح العلوم» والزَّمَلْكاني(ت: ٦٥١هـ) في «التبيان في علم البيان».

وهذا المَجالُ ذو أهميَّةٍ بالغةٍ في حياةِ «علمِ البلاغةِ العربيِّ» فهو الذي ضَمِنَ لهذا العِلمِ استمراريَّتَه، وقدرةَ طلَّابِ العِلمِ على الأَخذِ منه، فبغيرِ ما أَنتَجَه أهلُ ذلك المَجالِ من تصنيفٍ وتنظيمٍ وتَرتيبِ ما أَنتَجَه السَّابقونَ ما كانَ لمثلِنا أن يَخطوَ في هذا العِلمِ.

وإذا كانَ بعضُ أهلِ النَّظرِ من المُحدَثينَ المحدِثينَ يذهبُ إلى أن السكَّاكيَّ قد قَعَّدَ البلاغَةَ «جعلَها قواعِدَ» وأَقعدَها «ومَنعَها الحرَكةَ»، فإنَّه بقولِه هذا دلَّ على أنَّه لم يُبصِر ما كانَ قبلَ «السكَّاكي» وما كانَ من «السكَّاكي» فالرَّجُلُ ما قَعَّدَ البلاغَةَ وما أَقعدَها، عِظَمُ صنيعِ الرَّجلِ التَّصنيفِ والتَّرتيبِ والتَّنظيمِ لما كانَ موجودًا قبلَه من القَواعِدِ.

ما كَتَبه عبدُ القاهِرِ ملآنٌ بالقواعِدِ، فهو يَستخرِجُها من استقراءِ واقعِ البَيانِ، فيَستنبِطُ من فِقهِه هذا الواقِعِ البيانيِّ القاعِدَةَ، ويصوغُها صياغة كاشفة.

والسكَّاكي وإن قعَّد البلاغةَ، فإنَّه لم يُقعِدها: لم يَحاجِزها عنِ الحَركةِ، بل هو جَعلَ طَلَبها مَيسورًا على أهلِ زَمانِه، ولا سيَّما النَّاشِئَةُ في طَلبِ هذا العِلمِ بما صَنَعه من تَصنيفٍ للأساليبِ وترتيبٍ، فكان القائِمَ بفريضةِ زمانِه، وليسَ من العَدلِ، بل ولا من العَقلِ أن يلومَه قومٌ في القرْنِ الخامسَ عشرَ من الهجرةِ على أنَّه لم يقُمْ بفريضةِ زمانِهم!!

يقولُ شيخُنا: «عبدُ القاهرِ وَضَعَ قواعِدَ البلاغةِ وأَقسامَها، ولو راجَعتَ كتابَ «الإيضاح» الذي يُمَثِّلُ رأسَ الدِّراسةِ البَلاغيَّةِ عندَ المتأخِّرينَ لوجَدتَ كلَّ ما فيه راجِعٌ إلى كتابَي عبدِ القاهِرِ... وما زِلتُ أقرأُ كتاباتٍ تقولُ إنَّ عبدَ القاهِرِ لم يعنَ بالقاعِدَةِ، وإنَّما كانَ يُعنى بالتَّحليلِ، وانَّ الذي وَضَعَ القواعِدَ والتَّقسيماتِ هو

السكَّاكي، وهذا كلامُ مَن يكتبونَ في العِلمِ قبلَ أن يقرؤوه»[(١)]

والرَّجلُ كانَ جِدَّ أمينٍ حينَ سَمَّى كتابَه «مفتاحَ العلومِ»؛ أَنبأَ عن وَظيفةِ الكِتابِ أنَّه مفتاحُ مغاليقَ، فمنِ استعملَ المِفتاحَ في غيرِ ما صُنِعَ له فليُفتِّش في عَقلِه.

يقولُ الأستاذُ محمود شاكر، عن عبدِ القاهِرِ وعن كِتابَيهِ «الأسرار» و«الدلائل»[(٢)]: «هو أوَّلُ من أسَّسَ عِلمَ البلاغةِ تأسيسًا بالغَ الدِّقَّةِ، ومَن طَلَبَ البلاغَةِ منهما وَحدَهما، فقَد وَقَع في بحرٍ تتلاطَمُ أمواجُه، راكِبُه على غَرَرِ الغَرقِ، و الذي يضمَنُ لراكِبِه النَّجاةَ هم الذين قَعَّدوا قواعِدَ علمِ البلاغَةِ، وكَتبوا الكُتبَ والحواشيَ وضمَّنوها دُررًا، لا يُعرِضُ عنها إلَّا جاهِلٌ، ولا يذمُّها ويحُثُّ النَّاسَ عن الإعراضِ عنها إلَّا مَنِ استهانَ بالعِلمِ وبالعُلماءِ، ولا يُحصِّلُ طالبُ العِلمِ من ذَمِّهم، إلَّا «الاستهانة» دونَ العِلمِ . . .

---

(١) ينظرُ كتاب «مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني» لشيخنا: ص: ي – ك.

(٢) في: تقديمِه لكتاب «أسرار البلاغة»: ٢٧.

كلُّ من دَعا طلَّابَ العِلمِ إلى الإعراضِ عن الكُتبِ التي قَعَّدتِ القواعِدَ، ومَحَّصَتِ الكُتبَ، التي تُعدُّ أَصلًا في عِلمٍ لم يَسبقهم إلى مِثلِه سابِقٌ كـ«سيبويه وعبد القاهر» وحثَّهم على الرُّجوعِ إلى الأَصلِ وحدَه دونَ استعانةٍ بمن قَعَّدوا قواعِدَ هذا العِلمِ، وقَتلوُه بحثًا وتَنقيبًا، فقد استهانَ بعقولِ هؤلاءِ الأئِمَّةِ العِظامِ الذينَ خَدَموا العِلمَ بإخلاصٍ وَوَرعٍ جِيلًا بعدَ جِيلٍ، وعوَّدَ طَلبةَ العلمِ أن يستهينوا ويستخفُّوا بالعِلمِ نفسِه، وهذا هو البلاءُ الماحِقُ لكلِّ فضيلةٍ في طالِبِ العِلمِ، ويُخرجُه من حَيِّزِ التَّواضُعِ في طَلبِ العلمِ إلى حَيِّزِ الغرورِ والتَّبجُّحِ والاستطالةِ بعِلمٍ ليسوا منه في قَبيلٍ ولا دَبير».

والمجالُ الثَّالثُ: تلخيصُ ما سَبقَ أو شَرحُهُ أو تحشيتُه والتَّعليقُ عليه. وهو أَظهرُ وأكثرُ من أن نُشيرَ إليه.

هذا الطَّريقُ في التَّأليفِ شَرحًا وتَحشيَةً وتَعليقًا باتَ هو السَّبيلُ الأوسَعُ الأَمَدُّ، فمُنذُ القَرنِ السَّابعِ الهِجريِّ إلى عَصرِنا وما يزالُ هذا الطَّريقُ هو الأغلبُ على الرَّغمِ ممَّا فيه ممَّا لايتواءَمُ مع العَصرِ والمِصرِ. وعُظمُ ما يُكتَبُ

لطُلَّابِ عِلم البلاغَةِ في الجامعةِ من أشياخِهم الآن هو يَجري في هذا الطَّريقِ.

لا رَيبَ في أنَّ كتابَ «المفتاحِ» كانَ بحاجةٍ إلى شرحٍ وحاشيةٍ وتلخيصٍ، غيرَ أنَّ اتخاذَ هذا هو الطَّابعُ الغالِبُ أمرٌ ليسَ بالحَسنِ.

إنَّ طريقَ شرحِ الأَسفارِ ليسَ بالطَّريقِ الذي تترصَّدُه الخَطايا والمَثالِبُ بل فيه مِن المناقِبِ والمكاسِبِ ما قد لا تجدهُ في غيرِ هذا الطَّريقِ، إلَّا أنِّي بحاجَةٍ إلى أن أَبَسِّطَ القولَ في الموقِفِ من العَقلِ البلاغيِّ الشَّارِحِ والمُحشِّي، فلعلَّ مَن كانَ رغوبًا في أن يسلُكَ هذا الطَّريقَ في التَّأليفِ أن ينتفِعَ ما رَقنتُه في هذا.

* * * * *

الشَّرحُ فعْل يعادِلُ فِعلَ التَّفصيلِ، لا يتلاءَمُ معه أن يُضافَ إلى ما يُفصِّل ما ليس له أصلٌ في المُحكَمِ «المتنِ»، وإلَّا كان إقحامًا.

وإذا ما كانَ تفصيلُ المُحكَمِ مِن قَبيلِ تَصريفِ البَيانِ،

أي: إيرادِه في صُورَتينِ: صورةٍ محكَمةٍ، وصورةٍ مُفصِّلةٍ، فكذلكَ «المتنُ» و«الشَّرحُ» سواءٌ بسواءٍ ولكُلٍّ قومٌ يستطعِمونَه.

والباعِثُ على صِناعةِ المتونِ هو إعانةُ صِغارِ طُلَّابِ العِلمِ على عَقلِ أُصولِ العِلمِ وكُليَّاتِه في مُفتَتَحِ طَلبِهم، فطالبُ العِلمِ في باكرِ طَلبِه تكونُ قدرتُه على العقلِ والضَّبطِ والحِفظِ والإحاطةِ أَعظمَ من قُدرتِه على التَّفتيشِ والتَّدسُّسِ في البيانِ، فَروعِيَ حالُ مَلكاتِه، واستُثمِرَت كُلٌّ في مِيقاتِهِ الذي تُنتِجُ فيه، ثُمَّ إذا ما استولَى على عَقلِ كُليَّاتِ العُلومِ ممثَّلةً في مُتونِها انتقلَ به إلى المُستوى الأعلى وهو مُستوى «الشَّرحِ» فإذا ما استوى على شَرفِها انتقلَ به إلى مستوى «التَّحشيةِ» ولذا تجِدُ العالِمَ الواحِدَ يصنعُ في العِلمِ مَتنًا، ثمَّ يشرحُه أكثرَ من شَرحٍ، أو يُبَسِّطُ الشَّرحَ ثمَّ يختصِرُه

في «مختصراتِ» الشُّروحِ يتركُ صانُعها ما كانَ استطرادًا، ولا سيَّما في المناقَدَةِ والمحاجَّةِ، لا في تبيينِ المتنِ، فتبيينُ الأصلِ لا يُختصَرُ، وإنَّما يُختصَرُ ما

يُمكِنُ الاستغناءُ عنه لا لقِلَّةِ نَفعِه، بل لعَدمِ مواءمَتِه لحالِ من تُختَصرُ له المُطوَّلاتُ. فالمختصراتُ لها بواعِثُ تربويَّةٌ، وكلُّ هذا مرتَهَنٌ بمَساقاتِ الفِعلِ، فما يصلُحُ لسِياقٍ قد لا يَصلُحُ لآخَرَ، فليسَ حَسنًا أن نقفوَ أَثرَ صَنيعِهم في سِياقِ حَياتِهم، ونَتَّبِعنَّ سَنَنَهم شِبرًا بشبرٍ، وذِراعًا بذراعٍ، حتَّى لو سَلَكوا جُحرَ ضَبٍّ لسَلَكناه، فذلكَ ليسَ من البرِّ بالعِلمِ، ولا بهم في شيءٍ، وليسَ من النَّصيحةِ لطُلابِ العِلمِ في زَمانِنا ومِصرنا وجامِعتنا.

سلوكُ طَريقِ شرحِ المتونِ في زَمانِنا هذا ليسَ دائمًا هو الطريقُ القاصِدِ، إنَّما سلوكُ اتِّخاذِ المتونِ والشُّروحِ والحواشي والتَّقاريرِ زادًا إلى إنشاءِ قولٍ يتواءَمُ مع سِياقاتِ التَّأليفِ هو الأنفعُ والأَرفَعُ.

ليسَ يعني هذا أن يُحاجَزَ عن أن تُشرحَ المتونُ بما يواءِمُ سِياقَ الفِعلِ الآن، بل أراه بابًا لا يُغلَقُ، لكنَّه لا يَبقَى طابِعًا غالِبًا[1]

---

(١) شرحُ المتونِ كمثلِ تحقيقِ النُّصوصِ: التَّحقيقُ لا يصنَعُه =

والبيانُ في «المتنِ» يتَّسِمُ بسِمَتينِ أساسيَّتينِ: الدِّقَّةِ والإيجازِ، ولا يعدو أَحدُهما على الآخَرِ، فليسَ الإيجازُ بالذي يؤثِّرُ في دِقَّةِ العِبارةِ، ولذلكَ تكونُ العِبارةُ في «المتنِ» عبارةً جامِعةً للأصولِ.

والمتُونُ تتفاوتُ أوَّلًا في تحقيقِ «الدِّقَّةِ الجامِعةِ» ثُمَّ في الإيجازِ. ولذا تجِد المتنَ المنثورَ أَحكمُ وأعلى في بابِ «الدقة» و«الإيجاز» منَ المتنِ المنظومِ، لما يَستوجِبُه النَّظمُ من إيرادِ كَلِمٍ يَحتاجُ إليها نَظمًا.

= إلا عالِمٌ، ولا يَصنعُ عالمًا، لا تجِدُ مَن كلُّ همِّه التَّحقيقُ عالمًا في غالبِ الأَمرِ، وكذلكَ لا تجِدُ تحقيقًا صَنَعه مَن لم يَستوِ على شَرفِ تَخصُّصِه إلَّا تحقيقًا هَزيلًا، ضرُّه أكثرُ مِن نَفعِه.

وكذلكَ شرحُ المتنِ، لا يوفي كبيرَ حقِّه إلَّا مَن كانَ فتيًّا في بابِه، ومَن كانَ كلُّ فعلِه الشَّرحُ لا يكونُ عالِمًا ربَّانيًا: يربِّي الطُّلابَ، لأنَّه يفقِدُ الحِكمةَ التي هي سياسةُ العِلمِ والتَّعليم.

ولذا كانَ الأوفَقَ أن يكونَ الغالبُ هو إنشاءُ التَّآليفِ، وليسَ تحقيقُ النُّصوصِ وشَرحُ المتون، وتقييدُ الحواشي، على أنَّه رُبَّ حاشيةٍ على مسألةٍ واحدةٍ بكتابٍ في ميزانِ العِلمِ، ورُبَّ هامِشٍ واحِدٍ في تحقيقِ كتابٍ أنفعُ من كتابٍ.

وأُسلوبُ المتنِ مِن الأَساليبِ البلاغيَّةِ المتَّسِمَةِ بمثاليَّةِ الوَجازةِ. فهو نموذَجٌ عالٍ للإيجازِ ولا سيَّما إِيجازُ القِصَرِ، هو بابٌ وسيعٌ لفِعلِ العَقلِ البلاغيِّ تَحليلًا وإِبانةً عن مِنهاجيَّةِ الإبانةِ: حُسنَ دلالةٍ وتَمامها وتبرُّجَها «إِحكامَها».

ولعلَّ ما كتَبَه الخطيب القَزوينيُّ (ت. ٧٣٩هـ) من «تلخيص المفتاح» اتَّسمَ بهاتَينِ: «الدقة» و«الإيجاز» ثمَّ بوضوحِ العبارةِ، وطَهارتِها من الكَزازةِ ومن ثَمَّ كانت عنايةُ أهلِ العِلمِ به أكثرَ من غيرِه من التَّلخيصاتِ على كَثرتِها نَثرًا ونَظمًا.

فالعلاقة بينَ بيانِ «المتنِ» وبيانِ «الشَّرحِ» أَقربُ إلى العَلاقةِ بينَ «البيان المُحكَمِ» و «البيانِ المُفصِّل»:

- الإحكامُ عمدتُه النَّصُّ على الأُصولِ والكُليَّاتِ.

- والتَّفصيلُ عِمادُه بَسطُ هذه الأُصولِ والكُليَّات وتقريبُها إلى التَّلقِّي تعقُّلًا وفَهمًا.

فالشَّرحُ ليسَ مِن رسالتِه الرَّئيسةِ نقدُ ما يَشرحُه، بل رسالتُه الرَّئيسةُ هي تفصيلُه وتبيينُه ونثرُ مكنونِه، وهو بهذا

يهيئُ العَقلَ المتلقِّي ذلك الشَّرحَ أن يُبصِرَ بنفسِه ما في المشروحِ من تَميُّزٍ، وما فيه مِن عَوارٍ. فمَن أَحسَنَ الشَّرحَ والتَّفصيلَ هو ضِمنًا قد كَشفَ عن العَوارِ ومَوضِعِه ووضَعَ اليدَ عليه بلسانِ الحالِ. وتركَ أمرَ اتِّخاذِ المَوقفِ لقارئِ هذا الشَّرحِ، فإذا ما رأَيتَ في الشُّروحِ نقودًا تقويميَّةً، فذلكَ إِقحامٌ للنَّقدِ التَّقويميِّ في سِياقِ النَّقدِ التَّفسيريِّ «الشَّرحِ» وتلكَ مؤاخَذَةٌ منهجيَّةٌ[١]

والحاشيةُ: عبارةٌ عن أطرافِ الكِتابِ، ثم صارَ عبارةً عمَّا يُكتبُ فيها، وما يُجرَّدُ منها بالقول، فيدوَّنُ تدوينًا مُستقِّلًا، ويقالُ لها «تَعليقةٌ» أيضًا[٢].

وعُظمُ الحواشي إنَّما تَصنعُ في سياقِ مُدارسَةِ الشَّيخِ

---

(١) للشُّراحِ في أثناءِ شرحِهم المتونَ عباراتٌ دالَّةٌ على النَّقدِ التَّقويميِّ من نحو قولِهم: «فيه نظر» أو «فيه بحث» أو «تأمل» أو «ليتأمل» أو «فليتأمل» . . . وكلُّ عبارةٍ لها مدلولُها ومُقتضاها.

ينظر في هذا كتاب: «جامع العبارات في تحقيق الاستعارات»: ١٩٤، ١٩٥.

(٢) «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»: ١ / ٦٢٣.

تلاميذَه، فمنها ما يُقيِّدُ الشَّيخُ بنفسِه، ومنها ما يُقيِّدُه الطُّلابُ عنه أو مِن أَنفسِهم، والشَّأنُ في طالبِ العِلمِ النَّابِه أن تكونَ له حواشٍ على ما يَقرأُ إمَّا يرقِنُها في أَطرافِ الصَّفحاتِ أو في صفحاتٍ مستقلَّةٍ، فذلكَ أمرٌ جرى عليه العمل، وما يزالُ في شرْعةِ طَلبِ العِلمِ(١)

فإذا كانَ الشَّرحُ تفصيلًا لما أُحكِمَ في «المتنِ» وكان ذلك مُستوجِبًا أن يكونَ الشَّرحُ محيطًا بالمتنِ، لا يعمدُ في أصلهِ إلى الانتقاءِ فإنَّ الحاشيةَ لا تعدو أن تكونَ تعليقاتٍ جزئِيَّةً على مواضِعَ من قولِ الماتِنِ وقولِ الشَّارحِ، وغالبًا

---

(١) مَن له صُحبةٌ مُدارِسةٌ للمخطوطاتِ لا يكادُ يجد مَخطوطًا قرأَه عالمٌ أو طالبُ عِلمٍ إلَّا وعلى أَطرافِ صفحاتِه حواشٍ رَقَنَها قارئُ المخطوطةِ، وكُتبُ العلماءِ تزخَرُ بهذه الحواشي، وتعلو قِيمةُ الكِتابِ بما يرقُنُه العالمُ من حواشٍ، فنسخةٌ لعالِمٍ فحلٍ في تَخصُّصِه من كتابٍ تتضاعَفُ قيمتُها العِلميَّةُ والثَّمنيَّةُ، فتعلو على نسخةِ مَن دونَه في مقاماتِ العِلمِ. ولهذا يحرصُ طلابُ العلمِ على اقتناءِ الكتبِ المستعمَلةِ التي قرأَها أهلُ العلم، فهي لا تقدَّرُ بثمنٍ.

ما يكونُ قولُ الشارحِ هو محلُّ العِنايةِ في التَّحشيةِ، فهو قَولٌ على قَولٍ(١)

---

(١) للشَّرحِ طريقانِ رئيسانِ:

الأول: «الشرح الممزوج»: وهو الذي يَنسُقُ الشَّارحُ في شرحِه عبارةَ الماتِنِ بحيثُ لا تكادُ تَعرِفُ الفرقَ بين عبارةِ الماتِنِ وعبارةِ الشَّارحِ إلَّا بما يُقيمُه من عَلاماتٍ من نحوِ جَعلِ عبارةِ الماتِنِ بين هلالَينِ ( ) أو يجعلُها بلونٍ مغايرٍ للونِ مِدادِ عبارةِ الشَّرحِ. وهذا الضَّربُ من الشَّرحِ لا يُطيقُ الوفاءَ بحقِّها إلَّا مَن كانَ ذا قُدرةٍ بالغةٍ على أن يجعلَ بيانَه مُقارِبًا بيانَ «الماتِنِ» ومن هذا ما تجدُه في «شَرحِ المطول» للسَّعد التَّفتازاني، و«شرح العصام للسمرقندية»، و«شرح طاش كبري زاده لفوائد الغياثي» للعضدالإيجي، و«تلخيص مفتاح العلوم» للسكاكي.

والآخر: «الشَّرحُ بالقَولِ» أي: الذي يقولُ فيها الشَّارحُ «قوله» ثم يوردُ عبارةَ الماتنِ، ويورد بُعدَه عبارتَه، وهذا ما تجدُه في شرح السَّعدِ التَّفتازاني لمفتاحِ العلومِ للسكاكي، و شرحِ البهاءِ السُّبكيِّ «عروس الأفراح» و«شرح التلخيص» لأكملِ الدِّين البابرتي (ت٧٨٦هـ) وقد يجعل رمز(ص) للمصنف «الماتن» ورمز (ش) للشَّارحِ.

وهذا الضَّربُ يُتيحُ للشَّارحِ أمرينِ رئيسينِ:

الأوَّل: أن يأخُذَ ما شاءَ من قولِ الماتِنِ في شرحِه، ويدعَ =

والذي يَغلِبُ على الحاشيةِ «النقد التقويمي» فقلَّما تعرَّضَ للنَّقدِ التَّفسيريِّ إلَّا إذا ما رأى المحشِّي أنَّ فَهمَ الشَّارحِ أو عبارتَه ليسا بالمُسترضى عندَه، فيعمَدُ إلى شرحِ عبارةِ الماتِنِ على الوجهِ الذي يراهُ أقومَ، فرِسالةُ الحاشيةِ تقويميَّةٌ، ورِسالةُ الشَّرحِ تبيينيَّةٌ.

وهذا له أَثرٌ في منهجِ الإِبانةِ عند كُلٍّ، فمنهجُ الإِبانةِ في الحاشيةِ منهجٌ حجاجيٌّ، بينما منهجُ الإبانةِ في الشَّرحِ منهجٌ تبيينيٌّ إفهاميٌّ.

وهنالكَ ضربٌ آخرُ من التَّعليقِ يسمَّى «التقريرَ» وهو أوسَعُ من الحاشيةِ، ويكون تدارسُه بعضَ ما جاءَ في «المتنِ» و«الشَّرحِ» و«الحاشيةِ» وإن غَلبَ عليه تتبُّعُ «الحاشية» ويقلُّ تعرُّضه لعبارة «الماتنِ» من هذا ما تراه في «تقرير الشمس الأنبابي على مختصر السعد وحاشية البناني» وكتاب: «فيض الفتَّاحِ على حواشي شرحِ تلخيصِ

= ما شاءَ.

والآخَرُ: الاستطرادُ، وإقحامُ مسائِلَ وتنبيهاتٍ تتعلَّقُ بالمسألةِ المطروحةِ أكثرَ مِن الضَّربِ الأوَّلِ.

المِفتاحِ» تأليف: عبد الرحمن الشربيني، وهو على حاشية عبد الحكيم على شرحِ المطوَّلِ للسَّعدِ التَّفتازانيِّ على تلخيصِ المِفتاحِ للخطيبِ القَزوينيِّ.

وهذا النَّوعُ يكون فيه «التقريرُ» غيرَ سابغٍ، بل يتناولُ بعضَ المسائِلِ والعِباراتِ، ولذا كانَ مَسلكُه إيرادَ عبارةِ «الماتنِ» أو «الشَّارِحِ» أو «المُحشِّي» ثمَّ يعلِّقُ عليها، وهو يُعني بما يكونُ من «الشَّارِحِ» أو «المحشِّي» من عبارات «فيه نظر» أو«فيه بحث» ونحو ذلك دون تَبيينٍ من القَائلِ هذا النظرَ، وهذا البَحثَ غالِبًا.

ومثلُ ذلكَ أيضًا إنَّما يكونُ في أثناءِ مُدارسةِ الشَّيخِ تلاميذَه شرحًا وما عليه من حواشٍ في مجلسِ العِلمِ.

وهذا فيه إكسابُ العَقلِ البلاغيِّ القُدرةَ على أن يكونَ له قولٌ على قولٍ، وأن يُجريَ محاورةً بين العُقولِ، وأن لا يتَّخِذَ موقِفَ الحامِلِ للعِلمِ الإمَّعةِ، بل له ما يُدلي به بعدَ تبصُّرٍ في المسأَلةِ المَعروضَةِ، وهذا مِن المَهاراتِ التي يفتقِرُ إليه كُلُّ طالبي العِلمِ أيًّا كانَ مجالُ العِلمِ الذي

يَطلبُه، والتي يَجِبُ على الشَّيخِ أن يحمِلَ طُلابَه إلى أن يكتسبوها.

***

وثَمَّ أمورٌ يجِبُ فيما أَذهبُ إليه أن تكونَ في حركَةِ العَقلِ البلاغيِّ الشَّارحِ منها:

١- من أوجبِ ما يكونُ على العَقلِ البلاغيِّ الشَّارحِ أن يحرِصَ على أن يُطهِّرَ نتاجَه من كلِّ ما ليسَ له عَلاقةٌ برسالتِه عقلًا بلاغيًّا شارحًا، وليس له أَثَرٌ في وجودِ حركتِه واستمرارِها وامتدادِها مَهما كانت القِيمةُ العلميَّةُ أو المعرفيَّةُ لذلك الشَّيءِ، فاستجلابُ المعارِفِ إلى العلومِ من علومٍ أُخَرَ ليسَ مِعيارُه البتَّة القيمةَ العِلميَّةَ لهذا المُستجلِبَ في عِلمِه، بل مِعيارُه مِقدارُ تناسُبِهِ مع طَبيعةِ هذا العِلمِ المستجلَبِ إليه، ومعَ رِسالتِه ومَنهجِه في النَّظرِ، وأَدواتِه التي بها يحقِّقُ رسالتَه.

فإذا كانت هنالِك قيمةٌ معرفيَّةٌ أو علميَّةٌ لقضيَّةٍ ما في عِلمِ «الفلسفةِ» أو علمِ النَّفسِ، أوعلمِ الاجتماعِ، أو علومِ

اللُّغةِ، أو علمِ أُصولِ فقهِ العَقيدةِ، أو علمِ أُصولِ فقهِ الشَّريعةِ، أو غيرِ ذلكَ ولم يكُن لهذِه القَضيَّةِ العَليَّةِ القَيِّمَةِ في مَوطِنِها العِلميِّ صِلَةٌ برسالةِ العَقلِ البلاغيِّ العربيِّ المتفرِّدةِ في مَجالِ رسالاتِ عُلومِ البلاغاتِ الأُخَرِ، فإنَّه من الإِحسانِ لذلك العِلمِ أوَّلًا ولطلَّابه ثانيًا ألَّا تُستجلَبَ تلك القضيَّةُ في هذا العِلمِ.

إنَّ مَن يتبَصَّر واقِعَ بعضِ آثارِ العَقلِ البلاغيِّ شارحًا ومُحشِّيًا يُدرِكُ أنَّ ثَمَّ قضايا مِن علومٍ أُخَرَ قد أُقحِمَت في هذا العِلمِ، وأنَّ الاشتغالَ بها قد يُضيرُ العَقلَ ويَشغلُه عن التفرُّغِ للوَفاءِ بحقِّ رسالةِ عِلمِ البلاغَةِ العربيِّ مؤولًا بيانَ الوحي أو مُتذَوِّقًا البيانَ الأدبيَّ شِعرًا أو نثرًا أو شارحًا الإنتاجَ العِلميَّ لأعيانٍ من أئِمَّةِ هذا العِلمِ، ومُحشِّيًا تلكَ الشُّروحَ.

من نحو بَسطِ القَولِ في «الجوهر» و«الماهية» و«الوهم» و«الملكات» و«الجزء» و«الكل» و«الجزئي» و«الكُليّ» و«التَّصور» و«التَّصديق» وعلاقةِ «الاسم» بـ«المسمى» أَعينُه

أم غيرُه، والفرقُ بينَ «العِلمِ» و«المعرفةِ» والآراءِ في تعريفِ الخبرِ والإنشاءِ، ومذاهبِ العُلماءِ في هذا وما شاكَلَ ذلكَ من مُصطَلحاتِ مَنطقيَّةٍ وفلسفيَّةٍ، وقضايا عقليَّة مَحضةٍ، فمثلُ هذا يحسُنُ إحالةُ طالبِ العِلمِ إلى مَظانِّه من فُنونِ العِلمِ، فمَن شاءَ رَجعَ إليها.

وممَّا لا يَحسُنُ إقحامُه ما نراه مِن مُناقَشةِ قضايا نَحويَّةٍ استوفاها أَربابُها في أَسفارِهم، والإِحالةُ عليها أولى كما في بيانِهم معانيَ أدواتِ الاستفهامِ والفرقَ بين الاستفهامِ بـ«هل» والاستفهام بـ«الهمزة».

وتطهيرُ تلك الآثارِ من تلكَ القضايا والمصطلحاتِ أوالدَّلالةِ عليها في مَواطِنِها من تلك الآثارِ إنَّما هو رسالةُ أهلِ النَّظرِ النَّاقدِ تلك الآثارَ، وذلك ما يحسُنُ أن يبادَرَ إليه؛ فإنَّه من فرائِضِ الوقتِ.

* * *

٢- العُلومُ المتنوِّعةُ، وإن كانت لها أثرٌ بالغٌ في بناءِ كلِّ

عقلٍ يتلقَّاها، وفي تشكيلِه وفاعِليَّتِه وفُتوَّتِه، فإنَّها برغمٍ من ذلكَ لا يتسارَعُ إلى استحضارِ قضاياها في دِراسةِ علمٍ آخرَ، إلَّا إذا ما كانت تلكَ القَضيَّةُ وثيقةَ الصِّلَةِ بذلكَ العِلمِ.

وأهلُ الاختصاصِ الفتيِّ المحيطِ همُ الأقدرُ على البَصرِ بعلاقَةِ هذه القَضيَّةِ بذلك العِلمِ، وليسَ أولئكَ الذين صافَحَت أَنظارُهم صَفحاتٍ من بعضِ الكِتاباتِ في ذلك العِلمِ، ولم يعكُفوا في مِحرابِهم سِنينَ عددًا بينَ يدَي الأَعيانِ مِن أئمَّةِ هذا العِلمِ، فظنُّوا برغمٍ من هذا التَّقصيرِ أنَّهم باتوا أعيانَه وأمراءَه، يقولونَ فيَسمعونَ، ويَحكمونَ، فيبرمُ حُكمَهم على نحوِ ما تراهُ في مَقالاتٍ غيرِ قليلٍ ممَّن بُني عَقلُه وذوقُه من فُتاتِ موائِدِ الأعاجِمِ ورَجيعِهم، فبَهرَهم ما وَجدوا على تِلكَ المَوائِدِ، وظنُّوا أنَّها كَفيلةٌ بأن تُحدِثَ في عِلمِ البلاغةِ العَربيِّ ما أَحدثَته في عِلمِ البلاغَةِ في مَوطِنِها الآخَرِ، مُتغافِلينَ عن طبيعةِ عِلمِ البلاغةِ العَربيِّ ونشأَتِه ورِسالتِه، وأنَّه في ذلكَ كلِّه مُتَفرِّدٌ لا نَظيرَ له في أيِّ

مكانٍ آخرَ من هذا العالمِ، ومَن يزعُمُ أنَّ ذلكَ لا ظِلَّ له في الواقِعِ هو غيرُ مُطَّلِعٍ على نَشأةِ هذا العِلمِ ورِسالتِه ومَنهجِه في النَّظرِ، وضَوابِطِه وأَدواتِه في التَّلقِّي تَعقُّلًا وفَهمًا.

لن تَجِدَ عِلمَ بلاغةٍ في أيِّ أمَّةٍ أعجميَّةٍ كانت نَشأتُه مِن أَجلِ حُسنِ التَّلقِّي لكِتابِ الوحي الذي أَنزَلَه اللَّهُ سبحانَه وبحمدِه على هذِه الأمَّةِ في صورتِه التي أُوحيَ عليها، كما هو الشَّأنُ في «علمِ البلاغةِ العَربيِّ».

هذه نُقطةٌ مركزيَّةٌ فارقةٌ بينَ علمِ البلاغةِ العربيِّ، وأيِّ علمِ بلاغةٍ آخَرَ. والتَّغافُلُ عنها سيؤدِّي ضَرورةً إلى انحرافٍ خطيرٍ في الرُّؤيةِ المنهجيَّةِ لكُلٍّ، وهذا ما وَقَعَ فيه مَن لم يَبنِ رؤيتَه «علم البلاغة العربي» على هذه المُفارقةِ المركزيَّةِ المؤسِّسةِ.

كلُ ذلكَ لا سبيلَ لمُنصفٍ أن يتغافَلَ عنه فَضلًا عن أن يتوقَّفَ في التَّسليمِ به فَضلًا عن إنكارِه واستجهالِه؛ لأنَّه حقٌّ لا محيدَ عنه البتَّة في شِرعةِ أَهلِ الإنصافِ.

وهذا يستوجِبُ على القائِمينَ على شأنِ هذا العِلمِ «علمِ

البلاغةِ العربيِّ» أن يكونَ من فَرائِضِ رسالتِهم في مؤلَّفاتِهم- أيًّا كانَ طريقُ صناعَتِها- تبيينَ ذلك وتقريرَه بالحُجَّةِ القَويمةِ والبُرهانِ الفَتيِّ، وتقريبَه لمَن شاءَ الإِنصافَ، والوقوفَ على حَقائِقِ الأشياءِ.

***

٣- إذا ما كانت تخليةُ منهجِ النَّظرِ للعقلِ البلاغيِّ الشَّارحِ وآثارِه ممَّا ليسَ ذي نَسَبٍ برسالةِ هذا العَقلِ إنَّما هيَ من فرائِضِ الوقتِ، فإنَّ من تلكَ الفَرائضِ في الوقتِ نفسِه أن يعمدَ إلى تجديدِ هذا العَقلِ من داخِلِه لا مِن خارِجِهِ، فالتَّجديدُ مِن طبيعتِه أنَّه إعادةُ صناعةِ التَّليدِ بما يَتواءَمُ مع وَقتِه ورِسالتِه في ذلكَ الوقتِ، وكلُّ تليدٍ مؤصَّلٌ فيه ما يُمكِنُ أن يكونَ مُنطَلَقَ تجديدِه، وإلَّا كان إلى المواتِ أقربَ، ولم يكُن أهلًا لأن يكونَ تليدًا، فما لم يحمِلْ في داخِلِه عوامِلَ تجديدِه ودَيموميَّتِه وفاعِلِيَّتِه هو مواتٌ منذُ لحظةِ مِيلادِه، فشأنُ ما هو مؤثِّلٌ أنَّه يكتنزُ في داخِلِه ما يهيؤه لأَن يَبقى فاعِلًا في كُلِّ طَورٍ مِن أَطوارِه.

و«علمُ البلاغةِ العربي» لمَّا كانت نَشأتُه ورسالتُه مُرتَهنَةٌ ببلاغةِ بيانِ الوحي، ولا سيَّما البيانُ القرآنيُّ، هو بيانٌ سيبقى مَكنونُ أسرارِه مُتواليًا لا ينضَبُ كما جاءَ به الخبرُ «لايخلق على كَثرةِ الرَّدِّ» كان هذا العِلمُ مكتنزًا في داخِلِه عَوامِلَ تجدُّدِه، ودَيموميَّةِ فاعِلِيَّتِه، فلا تَعتريه الشَّيخوخة، وإنِ اعترَت بعضَ القائِمينَ للنَّظرِ فيه، وفرقٌ لا يخفى بينَ أن يكونَ العِلمُ في نفسِهِ مَنهجًا وأداةً ورسالةً معصومًا من الشَّيخوخةِ عِصمةً مستمدَّةً من عوامِلِ نشأَتِه ولرِسالتِه، وأن يكونَ العَقلُ الإنسانيُّ في ذلكَ الفِعلِ قابِلًا لفِعلِ الشَّيخوخةِ فيه.

ومِن الجَورِ أن يوصَمَ عِلمٌ بما يُمكِنُ أن يُبتلى به العَقلُ الإنسانيُّ القائِمُ للفِعلِ فيه، لأنَّ إسقاطَ حالِ العَقلِ الإنسانيِّ على شأنِ العِلمِ الذي يَعملُ فيه هو ممَّا يَنفُرُ منه مَنطِقُ العَقلِ الفِطريِّ، والعَقلِ العِلميِّ معًا.

إنَّ إصلاحَ علمِ البلاغةِ العربيِّ تأليفًا يستوجِبُ إفادتَه من عِلمِ «التَّناسُبِ» وعلمِ «المقاصِدِ» وأن يُعنى البلاغيُّونَ

بترسيخِ القَولِ في المقاصِدِ البيانيَّةِ للأساليبِ، ولا سيَّما في بيانِ الوحي قُرآنًا وسنَّةً، وهي غيرُ المقاصِدِ الشَّرعيَّةِ التي عُنيَ بها الفُقهاءُ والأصوليُّونَ. وغيرُ المقاصِدِ الموضوعيَّةِ التي عُنيَ بها المفسِّرونَ على نحوِ ما تراه عندَ «البقاعي» في تفسيره «نظم الدرر».

لدينا ثلاثةُ أنواعٍ من المقاصدِ:

المقاصِدُ التَّشريعيَّةُ التي عُنيَ بها الفُقهاءُ والأُصوليونَ.

والمقاصِدُ الموضوعيَّةُ «المعنى المركزي: الأم».

والمقاصِدُ البيانيَّةُ، وهي المتعلِّقةُ بكيفيَّاتِ القَولِ وسياقاتِه غايةً ووسيلةً.

كلُّ سورةٍ من القُرآنِ وكلُّ حديثٍ من أحاديثِ سيِّدِنا رسولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم مَقصِدٌ بيانيٌّ مُصاحِبٌ المقصِدَ الموضوعيَّ أو ما يُسمَّى بالمعنى الأمِّ «المركزي».

هو مَقصِدٌ متعلِّقٌ بالرِّسالةِ الكُلِّيَّةِ للبيانِ البليغِ المتمثِّلةِ في إيصالِ المعنى وتَفعيلِه في قلبِ السَّامِعِ، وهذا الإيصالُ

وتفعيلُه بعضُه يرجِعُ تَحقيقُه إلى المعنى، وبعضُه إلى صورتِه، وبعضُه إلى مِنهاجِ أَدائِه وسِياقاتِه.

ومِن ثَمَّ تَجِد المعنى الواحِدَ في القرآنِ يأتي به القرآنُ في صُورٍ متنوعةٍ وسياقاتٍ موضوعيَّةٍ متعدِّدَةٍ، لأنَّ هذا التَّصريفَ هو الذي يتحقَّقُ به بعضٌ من الإِيصالِ والتَّفعيلِ.

بل إِنكَ لَتَجِدُ لكلِّ قصيدةٍ من قَصائِدِ الشِّعرِ لدى كِبارِ الشُّعراءِ مَقصدًا شعريًّا هو المتحكِّمُ في منهجيَّةِ القَولِ الشِّعريِّ. وهو يختلِفُ عن الغَرضِ أو الموضوعِ الشِّعريِّ للقصيدةِ.

فمِنَ الإِصلاحِ أن تكونَ عنايةُ المؤلِّفِ بإبرازِ هذا عنايةً بالغةً، وهذا يتطلَّبُ أن يكونَ التَّأليفُ قاصِدًا إلى إِيصالِ البُعدِ العِلميِّ للأُسلوبِ من خِلالِ البُعدِ البَيانيِّ له قائِمًا في بيانٍ كُليٍّ، وليسَ في شاهِدٍ ومثالٍ. ولا سيَّما حينَ يكونُ المؤلِّفُ على وعيٍ بالبُعدِ العِلميِّ للأساليبِ، كما هو الشَّأنُ في طلابِ التَّعليمِ الجامعيِّ الذين سَبَقَ لهم الوعيُ بجَمهرةِ أساليبِ علومِ البلاغةِ الثَّلاثةِ على ما جاءَ به المتأخِّرونَ.

المُهمُّ أن نَتجاوزَ في التَّأليف ضَربينِ:

الأوَّلُ: ما يكونُ فيه القاعدةُ هي الأصلُ، ويكونُ البيانُ البليغُ شاهِدًا أو ماثِلًا كما هو الغالِبُ على كثيرٍ ممَّا يؤلَّفُ لطلَّابِ المرحلةِ الجامعيَّةِ.

والآخَرُ: ما يكونُ فيه التَّأليفُ من قَبيلِ التَّطبيقُ على البيانِ في صورتِه الكُليَّةِ، بأن تجعل القاعدةُ هي الأَصلُ، أي نقرأُ الشِّعرَ في سياقِ القاعِدةِ، فالتَّطبيقُ هو في خِدمةِ القاعدةِ العلميَّةِ، وليسَ في خِدمةِ البيانِ.

الأعلى أن تكونَ القواعِدُ العلميَّةُ مناراتٍ يُستهدَى بها، وليس أحكامًا يحتكمُ إليها، فالعدولُ الذي يقتضيه السِّياقُ والقَصدُ عن المَعهودِ هو رأسُ الأمرِ في بلاغَةِ كلِّ بيانٍ.

الجريانُ على المَعهودِ والمَبذولِ دونَ اقتضاءٍ يحاجِزُ البيانَ عن سَيرورتِهِ، وفاعِلِيَّتِه، فهو مواتٌ لحظةَ ميلادِهِ.

* * *

المجال الثالث

مجالُ تعليمِه

عِلمُ البلاغةِ العربي من العلومِ التي لا يتأتَّى لطالبِ العلمِ أن يقِفَ على أسرارِه ودقائِقِه إلا إذا زاحَمَ أَقرانَه في مجلسِ شيخٍ اختلط هذا العِلمُ بعقلِه وذَوقِه ودَمِه، وكانت له بطرائقِ التَّأليفِ فيه صُحبةُ نظرٍ وتفتيشٍ وتدسُّسٍ، لا يقنَعُ بظاهرِ النَّظرِ، ولا يَغفُلُ عن بواعِثِ القَولِ ومَراميه، وعَلاقاتِه بغيرِه.

فهو عِلمٌ لا يُكتفى فيه بذكاءِ العَقلِ، واقتدارِه على التَّقميشِ والإِحاطةِ بمذاهبِ العلماءِ وآرائِهم في القضايا والمَسائلِ، فيستحيلُ هذا العقلُ الجمَّاعُ مَكنزًا للقضايا والمسائِلِ ومذاهِبِ العلماءِ وآرائِهم فيها.

«علمُ البلاغةِ العربي» ليس علمًا أجردَ «ساذجًا» هو علمٌ قِوامُهُ فِكرٌ حَصيفٌ مُتغوِّرٌ سابغٌ، وذوقٌ رهيفٌ رشيدٌ

يستشعِرُ ملامِحَ الجَمالِ، ويتبصَّرُ معالمَه، ويَعقِلُ أسبابَه ومداخِلَها، فبغيرِهما لا يتحقَّقُ هذا العلمُ البتَّة. وكان لعبدِ القاهرِ عنايةٌ بالغةٌ بتوكيدِ ذلكَ.

وممَّا قالَه: «واعلم أنَّه لا يُصادِفُ القَولَ في هذا البابِ موقِعًا من السَّامِعِ، ولا يجِدُ لديه قَبولًا، حتى يكونَ من أهلِ الذَّوقِ والمعرفةِ، وحتى يكونَ ممَّن تُحدِّثُه نفسُه بأنَّ لما يومِئُ إليه من الحُسنِ واللُّطفِ أصلًا، وحتى يختلفَ الحالُ عليه عندَ تأمُّلِ الكلامِ، فيجدُ الأريحيَّةَ تارةً، ويَعرى منها أُخرى، وحتى إذا عَجَّبْتَهُ عَجِبَ، وإذا نبَّهْتَهُ لموضِعِ المزيَّةِ انتبَه.

فأمَّا مَن كانَ الحالانِ والوجهانِ عندَه أبدًا على سواءٍ، وكان لا يفقِدُ من أَمرِ «النَّظمِ» إلَّا الصِّحَّةَ المطلقَةَ، وإلَّا إعرابًا ظاهرًا، فما أقلَّ ما يُجدي الكلامُ معه. فليكُن مَن هذِه صِفتُه عِندَك بمنزلةِ مَن عَدِمَ الإِحساسَ بوزنِ الشِّعرِ، والذَّوقِ الذي يُقيمُه به، والطَّبعُ الذي يُميِّزُ صَحيحَه مِن مَكسورِهِ، ومُزاحَفَه من سَالِمِهِ، وما خرجَ من البحرِ ممَّا

لم يخرج منه في أنَّك لا تتصدَّى له، ولا تتكلَّفُ تعريفَه، لعلمِكَ أنَّه قد عَدِمَ الأداةَ التي معها يَعرِفُ، والحاسَّةُ التي بها يَجِدُ. فليكُن قدحُكَ في زنَدٍ وارٍ، والحكُّ في عُودٍ أنت تطمعُ منه في نارٍ»[1].

ليسَ كلُّ طالبٍ صالحٍ لعلمِ «النحو» على صورتِه الحاضرةِ مثلًا؛ صالحًا لـ«علم البلاغة العربي» لِما بينَ العِلمينِ من تباينٍ في أدواتِ التَّلقِّي ومِنهاجيَّتِه، وطَرائِقِ ممارستِه. على الرَّغمِ من أنَّ «علمَ البلاغةِ العربي» ربيبُ علمِ «النَّحوِ العربيِّ» لكن الغايةُ والرسالةُ عندَ كلٍّ مختلفةٌ.

في «علمِ البلاغةِ العربيِّ» ما يتلقَّاه طالبُ العِلمِ عن شَيخِهِ ولا سَبيلَ إلى رَقنِهِ في سِفرٍ، ولا سيَّما ما يتعلَّقُ بذوقِ الحروفِ، واستطعامِ المعاني فبعضُ المعنى لا تحمِلُه الكَلِمةُ في مادَّتِها وصِيغتِها ومَوقِعِها، وعَلاقَتِها بأَترابِها... بل يحملُه الأداءُ، ويحملُه ما يبدو على

---

(١) «دلائل الإعجاز» (م.س) ص: ٢٩١ (فقرة: ٣٤٤) وانظر أيضا: ص: ٧، ٣٧، ٤١، ٩٢، ١٧١، ٢٢٢، ٢٦٠، ٢٨٥، ٣١٥، ٤٣٥،

صَفحةِ وجهِ الشَّيخِ وهو يتدبَّرُ آيةً أو يتذوَّقُ صورةً شِعريَّةً. فكثيرًا ما أُبصِرُ أثرَ استطعامِ الشيخِ المعنى على وَجهِهِ وحركةِ يدِه. فأُدركُ أنَّ ثمَّ في استطعامِه ما لا يَستجيبُ لعِبارتِه.

اتَّسعت عليه الرُّؤيةُ فضاقَتِ العبارةُ..

كلُّ ذلك لا سبيلَ إلى طالبِ العلمِ أن يتعقَّله إلا وهو رابِضٌ بين يدَي شَيخِه، لا يَشغلُه عنه شيءٌ

مِن هنا كانَ للشَّيخِ في «علم البلاغة العربي» في طالب العلم ما ليسَ للكِتابِ فيه، وهذا لا أقولُه مجازَفةً بل عن تَجربةٍ عِشتُها، وأنا أَتلقَّى هذا العِلمَ عن بعضِ أشياخِه.

فريضةٌ فيما أَذهبُ إليه أن يحرِصَ كلُّ شيخٍ في تعليمِ هذا العِلمِ أن لا ينطلقَ من القاعدةِ إلى الشَّاهِدِ والمِثالِ، فهذا الانطلاقُ إذا كان منهاجَ الشَّيخِ، فعُظمُ الذين يَخرجونَ من تحتِ يدِه لا يعدو محصولُهم من التتلمُذِ عليه عقلُ المعرفةِ، ولا يتأتَّى لكثيرٍ منهم أن يُبحِرَ في قاموسِ نصٍّ شعريٍّ مثلا، وإن عَرضَ له، فهو يتعامَلُ معه على أنَّه

مجموعةُ شواهِدَ وأمثلةٍ لقواعِدِ البلاغةِ كما قامت في كتابِ «الإيضاح» فهو حينَ يعملُ في هذا البيانِ الكُليِّ لا يكادُ يعدو عَمَلُه ما يصنعُه الطُّلابُ في حَلِّ واجباتِهم المدرسيَّةِ، وما يَكلفونَ به من أعمالٍ تطبيقيَّةٍ، ومِثلُ هذا في خدمةِ علمِ البلاغةِ العربيِّ وعدمِه سواءٌ.

غيرُ قليلٍ من البحوثِ البلاغيةِ التي تدرسُ ظاهرةً أسلوبيَّةً في شعرِ شاعرٍ تراها منسوقةً على ما نُسِّقَت قواعدُ هذا الأسلوبِ في كتابِ «الإيضاح» ونحوِه، تبصَّر بحثًا يدرسُ شعريَّةَ الاستعارةِ في معتصميَّاتِ أبي تمامٍ مثلًا أو «ثغرياتِه» تجده قد جَرى على تقسيمِ البحثِ وَفقَ أقاسيمِ الاستعارةِ، ثم يقومُ بإنزالِ الأبياتِ والصُّورِ على وَفقِ هذه الأقاسيمِ، وبذلك لا يُمكنُ أن تعرفَ بعد الفراغِ من قراءةِ البحثِ أيَّ خاصيَّةٍ من خصائِصِ الاستعارةِ عند أبي تمَّام في ما أبدَعَه في «المعتصم» أو في «أبي سعيد الثغري».

إنَّ لكلِّ قصيدةٍ يصنعُها شاعِرٌ كأبي تمام مقصديَّةً شعريَّةً، لا تلتقي معَ المقصديَّةِ الشِّعريَّةِ لقصيدةٍ أخرى،

وإن قيلَت في الممدوحِ نفسِه. وهذا يَظهرُ من طابعِ الشِّعرِ في القصيدةِ، وفي حركةِ المعنى وبناء النصِّ الشِّعريِّ.

أيُمكِنُ لمَن له صُحبةٌ بشعرِ أبي تمام مثلا أن يقولَ: إنَّ قصيدتَه «الرائيَّة» في «المعتصم» التي مَطلعها:

رَقَّت حواشي الدَّهرِ، فهي تمَرمرُ

وغدا الثَّرى في حِليهِ يتكَسَّرُ

هي في مَقصِدِها الشِّعريِّ، ومنهاجِ بنائِها، وحركةِ المعنى مُطابقةٌ للمقصِدِ الشِّعريِّ ولمنهاجِ البناءِ، ولحركةِ المعنى في قصيدتِه «البائية» التي مَطلعُها:

السَّيف أصدقُ أنباءً من الكُتبِ

في حَدِّهِ الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ

على الرغمِ من أنَّهما في شأنِ «المعتصم» معًا؟

البصرُ بالشِّعرِ يَرى صورةَ «المعتصم» في «الرائية» ليسَت مطابقةً لصورتِه في «البائية» والبصرُ بالشِّعرِ يرى أنَّ أبا تمام في «الرائية» ليس هو هو في «البائية».

دراسةُ الظَّاهرةِ البلاغيَّةِ في شعرِ الشاعِرِ على أنَّ شِعرَه تطبيقٌ للقواعِدِ أو شواهِدَ له، أو أمثلةٌ تجلّي القاعدةَ لن تأذنَ لمَن يفعلُ أن يُبصِرَ الذي قلتُ. ولن تأذَنَ لمن يفعلُ أن يكونَ من أهلِ «علم البلاغة العربي» ويترتَّبُ على هذا أنَّه لا يَرى فَرقًا بين البلاغةِ القرآنيَّةِ في سورةِ «الكوثر» وفي سورة «النصر» على الرَّغم من تقاربِهما، وسورةِ «الكافرون» وسورةِ «المسَد» على الرَّغمِ من تقاربِهما. وسورةِ «الضحى» وسورةِ «الانشراح» على الرَّغمِ من تقاربِهما.

مَن لا يُحسنُ البصرَ بخصائِصِ كلِّ قصيدةٍ لدى شاعِرٍ هو بالضَّرورةِ أعجزُ عن أن يرى خَصائصَ كلِّ سورةٍ في البيانِ القرآنيِّ.

مِن هنا كان فريضةً على كلِّ شيخٍ أن يُباعِدَ، ولا سيما في ما يسمى بمرحلة «الدراسات العليا» بين طلابِ علم البلاغةِ العربيِّ، ومعاملةِ البيانِ الإبداعيِّ على أنَّه شواهدُ وأمثلةٌ لقواعِدَ بلاغيَّةٍ.

***

وممّا يجبُ أن يُحملَ إليه أَوْ عليهِ مَن تقدَّم في مراحِلِ

طلبِ علمِ البلاغةِ العربيِّ أن تتوفَّر عنايتُه في دراسةِ الأساليبِ ومناهِجِ الإبانةِ في البيانِ العَليِّ المعجِزِ: بيانْ الوحي قُرآنًا وسُنَّةً، وفي البيانِ العالِي: بيانِ الإبداعِ البشريِّ شِعرًا ونثرًا أدبيًّا بتحقيق المقتضَي الإبانةَ والإِعرابَ بهذا الأسلوبِ، وذلكَ المنهجُ عن هذا المعنى والمَغزى في هذا المَقامِ، فتحقيقُ ذلكَ وتحريرُه مُعينٌ على حُسنِ البَصرِ بخواصِّ ذلك الأسلوبِ في الإبانةِ عن المكنوزِ في فؤادِ المبينِ . وهذا من حقِّ المتكلِّم على السَّامعِ.

وعلمُ البلاغَةِ العربيُّ إنما هو عِلمُ النَّظرِ في المقتضِي والباعِثِ على القَولِ واستيفاءِ المتكلِّمِ تلكَ الاستحقاقاتِ على الوجهِ الأَمجدِ الأحمدِ.

وغيرُ قليلٍ من المتقدِّمينَ في مراحِلِ طَلبِ علمِ البلاغةِ العربيِّ لا يُعنونَ بذلك على الوجهِ الأَليَقِ منه ممَّا يجعلُ فِعلهم خِداجًا.

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيئًا
كَنَقصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

* * *

ومِن الأصولِ التي يجِبُ أن يُعلِّمَها الشيخُ طلابَه الخصائِصَ العامَّة لكُلِّ أسلوبٍ، فلكلِّ أسلوبٍ رسالةٌ ووظيفةٌ يؤدِّيها في المعنى، وفي النَّفسِ المستقبِلةِ ذلكَ المعنى.

ما مِن أُسلوبٍ إلَّا وله في المعني الذي يُصورُه أَثرٌ.

وما مِن أُسلوبٍ إلَّا وله في النفسِ المستقبلتِه أَثرٌ.

هذه الرِّسالةُ التي تكونُ للأسلوبِ تتأثَّرُ بثلاثِ جهاتٍ بعَلاقَتِها بالغَرضِ المساقُ لها البيانُ، وبعلاقتِها برسالاتِ الأساليبِ الأُخَرِ، وبموقعِ الأسلوبِ من سائِرِ الأساليبِ الأُخَرِ[١].

الأسلوبُ إذا ما كانَ في موقِعٍ رئيسٍ من صناعةِ المعنى، فإنَّ تأثُّرَه بالأساليبِ الأُخرِ وتأثيرَه فيها يختلِفُ عنه إذا ما كانَ هذا الأسلوبُ نفسُه ليسَ في هذا الموقعِ الرَّئيسِ.

تبصَّر موقعَ «التقسيمِ» في سورةِ «الضحى» وفي صُحبتِه أسلوبُ «القسم» وأسلوبُ «السَّجع» ثم تبصَّر مَوقِعَ

---

(١) يراجع «دلائل الإعجاز»: ٧٨ (فقرة: ٨٠) وص: ٢٨٥ (فقرة ٣٣٤).

أسلوبِ «المقابلة» في سورة «والليل إذا يغشى» وفي صحبتِه أسلوبُ «القسم» و«السَّجعِ».

وتبصَّر أسلوبَ «القَسمِ» في سورة «والشمس وضحاها» في صُحبةِ أسلوبِ «السَّجع» و«المقابلة» تجد لأسلوبِ «القسم» فيها مَوقِعًا غيرَ موقِعِه في سورة «الضحى» مِثلَما تجد لأُسلوبِ «المقابلةِ» في سورة «والليل» موقِعًا غيرَ موقِعِه في سورة «والشمس» وهكذا يكونُ للأسلوبِ قيمةٌ وظيفيَّةٌ.

وللتَّأثيرِ في المعنى مَخرجُه من الأسلوبِ مثلما للتَّاثيرِ في النفسِ مخرجُه من الأسلوبِ. والعملُ على البَصرِ بذلكَ فريضةٌ، وإتقانُ هذا لا يكونُ بجُهدٍ فرديٍّ منعزلٍ، بل يكونُ ثمرةَ تلاقُحِ الرُّؤى المتخصِّصةَ المُخلِصةَ تكونُ في مجالسِ المُذاكرةِ والمدراسةِ وهما: «المذاكرة» و«المدارسة» بين الأشياخِ، تَفتحُ أبوابًا للفهمِ لا تُفتحُ البتَّة خارجَ سياقِ «المذاكرة والمدراسة» وكذلك «السُّؤالُ» يَفتحُ بابًا للفهمِ في قلبِ الشَّيخِ لا يُفتحُ بغيرِه، ولو عَلِمَ الطُّلابُ نِعمةَ السُّؤالِ وفضلَه على الشَّيخِ، وأنَّ هذا مِن

بِرِّهم به لمَا كَفُّوا عن سؤالِه، وليسَ هذا ممَّا يَسْخطُه اللَّهُ سبحانه وتعالى «كثرةُ السؤال» بل إنِّي لأزعمُ أن كثرةَ سؤالِ الطَّالبِ النَّابهِ المُحبِّ البارِّ لشيخِهِ هو من إكرامِهِ وإعانَتِهِ على أن يُبصِرَ ما ليسَ له أن يُبصِرَه في غيرِ سياقِ السُّؤالِ.

وكذلك «المذاكرةُ» و«المدارسةُ» بين الأشياخِ لو عَلموا قدرَ فوائِدِها لما تحاجَزوا عنه. ولمَا شُغلوا بعَرَضٍ من الدُّنيا يزولُ عنهم أو يَزولونَ هم عنه لا محالةَ.

إنَّ منهاجَ المدارسةِ والمراجعةِ والمذاكرةِ هو عندي أَنفعُ ما يكونُ في تعليمِ «علم البلاغة العربي» ولا سيَّما لطلابِ «الدراسات العليا».

المهمُّ أنَّ قراءةَ علمِ البلاغةِ في سياقِ البيانِ العالي البديعِ شعرًا ونثرًا، ثم في سياقِ البيانِ العَليِّ المعجزِ قرآنًا وسنةً لهي مِن أَفضلِ طرائِقِ تعليمِ «علم البلاغة العربي» في الجامعةِ.

* * *

وممَّا أَراهُ ذا أَثرٍ بالغٍ في إِصلاحِ تعليمِ «علم البلاغةِ العربيِّ» في الجامعةِ أن يكونَ من مقاصِدِ تعليمِهِ وأَهدافِهِ

العِلميَّةِ والتَّربويَّةِ بَعْثُ القِيمِ الآدميَّةِ عامَّةً، والإسلاميَّةِ خاصَّةً من خِلالِ حُسنِ فقهِ ما يُصطفَى من البيانِ لِتُفقَهَ مناهِجُ الإبانةِ فيه، فليسَ الأهمُّ في هذا البابِ هو الإحاطةُ بمناهِجِ الإبانةِ جرداءَ من أن تفعلَ تلكَ الإحاطةُ في بناءِ الوجودِ «الآدميِّ» لطالبِ العِلمِ، وهو وجودٌ يكونُ صاحِبُه على ذِكرٍ دائِمٍ أنَّ أباه الأَوَّلَ عليه الصلاة والسلام خلقَه اللَّهُ تعالى بيدِه، وأسجدَ له الملائكةَ، وعَلَّمهُ الأسماءَ كلَّها، فحضورُ مثلِ هذا في وَعيِ المَرءِ حُضورًا دائِمًا يُقيم حركتَه الجوانيَّةَ والبرانيَّةَ في هذه الحياةِ على وَفقِ مرادِ اللَّهِ الشَّرعيِّ إيمانًا واحتسابًا، و تلك هي الثَّمرةُ الأكملُ والأمثلُ لمدارسةِ علمِ البلاغةِ العربيِّ، فإذا لم تتحقَّق بمُدارستِه فلا خيرَ في تلك المدارسةِ.

إنَّما العلمُ من أجلِ تحقيقِ الأدبِ مع اللَّهِ سبحانه وتعالى، وكلُّ علمٍ لا يُثمِرُ هذا الأدبَ فهو من العِلمِ الذي استعاذَ منه سيِّدُنا رسولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وإذا ما كانت الدَّعوةُ إلى ربطِ مناهجِ التَّعليمِ والتَّعلُّمِ

بحاجاتِ «السُّوقِ» كما يقال، فإنَّ الأمرَ أشدُّ إلحاحًا في طَلبِ علمِ البلاغةِ العربيِّ

علينا أن نُحسِنَ البَصَرَ برسالةِ هذا العِلمِ. إنَّها لمن أجلِّ رسالاتِ العُلومِ، إنَّها رسالةٌ قائِمةٌ بصناعةِ العَبدِ الصَّالِحِ المُصلِحِ. العبدِ القائِمِ بجوهرِ آدميَّتِه، فأبونا «آدمُ» إنَّما سُمِّي كذلك من «الأدْمِ»:

يقولُ ابنُ فارسٍ(ت. ٣٩٥هـ): «(أَدَمَ) الْهَمْزَةُ وَالدَّالُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْمُوَافَقَةُ وَالْمُلَاءَمَةُ.

وَذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِلْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ -وَخَطَبَ الْمَرْأَةَ-: «لَوْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا»[1].

---

(١) روى الترمزي في كتاب «النكاح» من «جامعه» بسنده عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا».

وَفِى الْبَابِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ وَجَابِرٍ وَأَنَسٍ وَأَبِى حُمَيْدٍ وَأَبِى هُرَيْرَةَ. قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ العِلمِ إِلَى هَذَا الحدِيثِ وَقَالُوا لاَ بَأْسَ أَن يَنظُرَ إِلَيْهَا مَا لَم يَرَ =

قَالَ الْكِسَائِيُّ: يُؤْدَمُ يَعْنِي أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا الْمَحَبَّةُ وَالِاتِّفَاقُ، يُقَالُ: أَدَمَ يَأْدِمُ أَدْمًا. وَقَالَ أَبُو الْجَرَّاحِ الْعُقَيْلِيُّ مِثْلَهُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَلَا أَرَى هَذَا إِلَّا مِنْ أَدْمِ الطَّعَامِ، لِأَنَّ صَلَاحَهُ وَطِيبَهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْإِدَامِ...»[١]

وواقِعُ الحياةِ أحوجُ إلى الصَّلاحِ الذَّاتيِّ والإِصلاحِ المجتمعيِّ، كمثلِ حاجتِه إلى الماءِ والهواءِ، ولِعلمِ البلاغةِ العربيِّ اقتدارٌ على أن يُثقِّفَ النَّفسَ الإِنسانيَّةَ تثقيفًا يجعلُها أَرغَبَ في الصَّلاحِ والإصلاحِ، وأرغَبَ من الفَسادِ والإِفسادِ وأهلِهما، فهذا التَّثيقفُ النَّفسيُّ والتَّرغيبُ والإِغراءُ بإقامةِ الحياةِ على عَمودِ الصَّلاحِ والإِصلاحِ هو رسالةُ هذا العِلمِ فهو علم إصلاحيٌّ تثقيفيٌّ في المقامِ الأَوَّلِ، له خصُوصيَّةٌ منهجيَّةٌ في تحقيقِ هذه الرِّسالةِ، فإذا ما عُنيَ أهلُه بتحقيقِ هذه الرِّسالةِ فقد أَسدَوا بهذا العِلمِ

= مِنهَا مُحَرَّمًا. وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ «أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا» قَالَ أَحْرَى أَنْ تَدُومَ الْمَوَدَّةُ بَيْنَكُمَا.

(١) «معجم مقاييس اللغة»: ١/ ٧١.

للمجتمعِ المسلِمِ، بل المجتمعِ الإنسانيِّ ما لا يُسديه غيرُه من العُلومِ.

*****

وممَّا أراهُ ذا أثرٍ بالغٍ في إصلاحِ «علمِ البلاغةِ العربيِّ» تعليمًا في الجامعةِ أن يكفَّ الأشياخُ عن تأليفِ مذكِّراتٍ فصليَّةٍ يلتهمُها الطَّالبُ في ثلاثةِ أشهرٍ، ويعاني حملَها في رأسِه إلى الفراغِ من الاختبارِ فيها، فإذا ما فرغَ منه، نفضَ رأسَه، فأَفرغَها ممَّا كانَ يُثقِلُها، ويؤوبُ إلى بيتِه وليسَ معه منها شيءٌ.

ليسَ معنى ذلكَ أن لا يؤلِّفَ الأستاذُ الجامعيُّ في تخصُّصِه، بل لا يؤلِّفُ لطلَّابِه خاصَّةً، إنَّما يؤلِّفُ مراجِعَ للعِلمِ وأَهلِه، لا تُطرحُ بانتهاءِ مدَّةِ الإلزامِ بها.

وكلُّ طالبٍ عليه أن يؤلِّفَ بنفسِه لنفسِه «تذكرة» يكون فيها طابعُه الذَّاتيُّ بكلِّ مكوِّناتِه التي يلتقي في بعضِها مع أَقرانِه ويتفرَّدُ في بعضِها عن سائِرِ أقرانِه، ومَن لا يستطيعُ منهم يؤخَذُ بيدِهِ في حَزمٍ رؤوفٍ، فإن أعرضَ، فليس بأهلٍ

لأن ينفقَ معه شيءٌ من الجُهدِ والعُمُرِ، فإنَّهما نعمةٌ من أجلِّ النِّعمِ، ولا يليقُ بذلُها لمَن ليسَ لها بأهلِ

فإذا ما كان بعضُ الخَللِ مرجعُه اليومَ إلى حالِ طالبِ «علمِ البلاغةِ العربيِّ» في الجامعةِ، فإنَّ بعضًا غيرَ قليلٍ من هذا الخَللِ والخَطَلِ يرجِعُ إلى الأُستاذِ الجامعيِّ نفسِه لم يرَ في نفسِه سِوى «موظَّفٍ» في دولابِ «الحكومةِ» ولم يؤمِن بأنَّه صاحبُ رسالةٍ أستاذًا يصنعُ عقولًا ورجالًا، وأنَّه على ثَغرٍ، وفي رباطٍ. وأنَّ صناعةَ العقولِ أقوى أثرًا في الحِفاظِ على الأمَّةِ في جميعِ أُمورِها من صناعةِ أيِّ شيءٍ آخرَ، فصناعةُ الرِّجالِ هي رسالةُ العُلماءِ. وهي بلا ريبَ أشرفُ صناعةٍ.

***

وممَّا هو عظيمُ الأثَرِ في إصلاحِ «علمِ البلاغةِ العربيِّ» في الجامعةِ تعليمًا أن يسلُكَ الشَّيخُ مع طلَّابِه مَسلكَ استطعامِ البيانِ بأَنفسِهم من خلالِ البَصرِ بما جاءَ عليه البيانُ البليغُ، وموازنتِه بما يُمكِنُ أن يقومَ مقامَهُ عربيَّةً ليُعرفَ فضلُ ما هو قائِمٌ، وما يُمكنُ أن يقومَ مقامَه، وذلك سبيلٌ عُنِيَ به

الأَعيانُ فهذا عبدُ القاهر يَهدينا قائلا: «واعلَم أنَّه إذا كانَ بيِّنًا في الشَّيءِ أنَّه لا يَحتملُ إلا الوجهَ الذي هو عليه حتَّى لا يُشكِلَ، وحتَّى لا يُحتاجُ في العِلمِ بأنَّ ذلك حقُّه وأنَّه الصَّوابُ، إلى فِكرٍ ورويَّةٍ، فلا مَزيَّةَ[1].

وإنَّما تكونُ المزيَّةُ ويجبُ الفضلُ إذا احتمَلَ في ظاهِرِ الحالِ غيرَ الوجهِ الذي جاءَ عليه وجهًا آخرَ، ثم رأيتَ النَّفسَ تنبو عن ذلكَ الوجهِ الآخرِ، ورأيتَ للذي جاءَ عليه حُسنًا وقَبولًا تعدمهما إذا أنتَ تركتَه إلى الثَّاني»[2].

بل يُمكِنُ أن يكونَ للوجهِ المتروكِ قيمةٌ إلَّا أنَّها من دونِ المذكورِ، فيكونُ في اختيارِ الأحسنِ وتركِ الحَسنِ دِقَّةٌ تعلو دِقَّةَ اختيارِ المَقبولِ وطَرحِ المرفوضِ.

---

(١) أي: فلا مَزيَّةَ للمتكلِّمِ في هذا، وإن تكن هنالكَ مزيَّةٌ ترجِعُ إلى اللُّغةِ نفسِها، فهنالكَ ضَربانِ من البلاغَةِ:
بلاغةٌ ترجِعُ إلى اللُّغةِ نفسِها ليسَ للمتكلِّمِ في ذلك فضلٌ كتقديمِ أدواتِ الاستفهامِ أو النَّفيِ، ونحوِ ذلكَ، وفي كتابِ «الخصائِصِ» لابنِ جني فيضٌ من ذلكَ، ومنها ما يرجِعُ إلى المتكلِّمِ بها، وهذ ما يَلتفِتُ إليه البلاغيُّونَ.

(٢) «دلائل الإعجاز»: ٢٨٦ (فقرة: ٣٣٥).

فممَّا يَحسُنُ بكلِّ شيخٍ أن يُحسِنَ به إلى تلاميذِه أن يُقيمَهم في سياقِ اكتسابِ مهارةِ الاستبدالِ، ورؤيةِ الفروقِ بين ما جاءَ به البيانُ وما يُقام مقامَه على مستوى الكَلِم في سياقِها، ومستوى النَّظمِ، في سِياقِه فيجعل كلَّ طالبٍ من طلابِ العِلم يُقيمُ مُقامَ الحاضرِ في البيانِ ما يُقاربُه ثمَّ يوازِنُ بينَ الأمرينِ، فيرى ما بينَهما من مُفارقةٍ في المعنى، وفي الدَّلالةِ عليه مع السَّعي إلى أن يَضعَ يدَه على مَوضِعِ الحُسنِ أو غَيرِه، وأن يُبينَ عن العِلَّةِ بعبارةٍ كاشِفةٍ، فبِمثلِ هذا يكونُ لعلمِ البلاغةِ العربيِّ في قلبِ طالبِ العِلمِ حُضورَ الملَكةِ التي لا تُفارِقُه.

وهذا فيما أَذهبُ إليه أنفعُ لطالبِ «علم البلاغة العربي» مِن أن يَحفظَ في صَدرِه كلَّ مذاهِبِ العُلماءِ وآرائِهم في كلِّ قضيَّةٍ ومسألةٍ من قضايا عِلمِ البلاغةِ ومَسائِلِه من دونِ هذا المَسلكِ الموازِنِ بينَ ما هوقائِمٌ وما هو محتملٌ.

فهذا العِلم إنَّما هو عِلم لا يحيى إلَّا بأن يجاهِدَ صاحبُه في أن يتولَّى هو استثمارَه في استنباطِ ما هو مكنونٌ في عالي البيانِ وعَليِّهِ. فيستحيلُ هذا العِلمُ بكلِّ قضاياه

ومسائِلِه، ومذاهبِ العُلماءِ وآرائِهِم في كلِّ قضيَّةٍ إلى مَلَكَةٍ ومَهارةٍ فاعِلةٍ تؤتي أُكُلَها كلَّ حينٍ باجتهادِ ربِّها وإخلاصِهِ للَّهِ سبحانه وبحمدِه، ومن ثَمَّ أذهبُ إلى أنَّ المحصُولَ المعرفيَّ النظريَّ الذي يُحصِّلُه طلابُ هذا العلمِ في مراحلِ التَّعليمِ قبل الجامعيِّ إذا ما اجْتُهِدَ في قراءتِه في دواوينِ الشِّعرِ ومدوناتِ النَّثرِ الأدبيِّ قراءةَ استبصارٍ واستثمارٍ كان ذلكَ أنفعَ لهم وللعلمِ نفسِه، فذلك هو الطَّريقُ القويمُ. ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

وصلَّى اللَّه وسلَّم وباركَ على عبدِهِ ونبيِّه ورسُولِه سيِّدِنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وصَحبِه وَوَرَثَتِه من أهلِ العِلمِ أَجمعينَ.

والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ.

وكَتبَه:

مَحمُود تَوفِيق مُحمّد سعد

الأستاذ غير المتفرغ في جامعة الأزهر الشّريف

القاهرة: مدينة الشروق

almasry411@gmail.com

ثَبَت المصادر والمراجع

«آل حم: الشورى - الزّخرف- الدّخان: دراسة فِي أسرارِ البيان» لشيخنا. مكتبة وهبة، القاهرة، ط (١) عام: ١٤٣١هـ .

«أسرار البلاغةِ» لعبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة، نشر: مكتبة الخانجي مطبعة المدني.القاهرة. . ط(١) عام ١٤١٢هـ .

«جامع العباراتِ فِي تحقيق الاستعارات» لأحمد مصطفَى الطرودي، تحقيق: محمد رمضان الجربي. نشر: مكتبة الآداب. القاهرة. ط(١) عام: ١٤٢١هـ.

«دلائل الإعجاز» قرأه وعلق عليْهِ محمود محمد شاكر. . مطبعة المدني بالقاهرة . نشر مكتبة الخانجي، مصر، ط(٢).

«الرّسالة» لأبي عبد اللَّه محمد بن إدريس الشافعيّ(ت: ٢٠٤هـ) تحقيق: أحمد محمّد شاكر. نشر: مكتبه الحلبي، مصر، ط(١) عام: ١٣٥٨هـ.

«العقل وفهم القرآن» لأبي عبد اللَّه الحارث بن أسد المحاسِبي (ت: ٢٤٣هـ) تحقيق: حسين القوتلي .نشر: دار الكندي، دار الفكر، بيروت. ط (٢) عام: ١٣٩٨هـ.

«الفكر الأصولي واستحالة التأصيل؛ نحو تاريخٍ آخر للفكر الإسلامي» لمحمدأركون / ترجمة هاشم صالح/ دار الساقي . بيروت. ط(٣) سنة ٢٠٠٧م.

«القرآن من التفسير الموروث إلى تحليلِ الخطاب الديني» لمحمد أركون، ترجمة هاشم صالح. دارالطليعة، بيروت، ط(٢) ٢٠٠٥م.

«قضايا فِي نقد العقل الدينيّ: كيف نفهم الإسلام اليوم» لمحمد أركون. . ترجمة وتعليق: هاشم صَالح. دارالطليعة. بيروت. ط(٤) ٢٠٠٩م

«كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة: مصطفى بن عبد اللَّه كاتب جلبي (ت: ١٠٦٧هـ) نشر: مكتبة المثنى، بغداد، سَنة: ١٩٤١م

«المبسوط في القراءات العشر» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابوريّ (ت: ٣٨١هـ) تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي . نشر: مجمع اللغة العربية - دمشق . سنة: ١٩٨١م .

«مدخل إلى كتابيْ عبد القاهرِ الجرجاني» لشيخنا محمد محمد أبو موسى. ط(٢) عام١٤٣١هـ، نشر مكتبة وهبة. القاهرة.

«مفهوم النصّ: دراسة فِي علومِ القرآن» لنصر حامد أبي زيد. الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة: ١٩٩٣م.

«المنار المنيف في الصحيح والضعيف» لابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت: ٧٥١هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. نشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب. ط(١) عام: ١٣٩٠هـ

«مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب» لأمين الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. الأعمال الكاملة ط: سنة: ١٩٩٥م.

«المنطق والموازين القرآنية: قراءة في كتاب القسطاس المستقيم للغزالي» لمحمد مهران. سلسلة أبحاث علمية (١٣) المعهد العالي للفكر الإسلامي. ط (١) ١٤١٧هـ، القاهرة.

«نحو نقد العقل الإسلامي» لمحمد أركون، ترجمة وتقديم: هاشم صَالح. دار الطليعة. بيروت. ط(١) سنة: ٢٠٠٩م.

فهرس المحتـوى